

سُورَةُ عَبَسَ

حِينَ يُبْصِرُ الْقَلْبُ مَا أَخْفَاهُ الْبَصَرُ

تأليف: رَدَّاد السَّلَامِي



سُورَةُ عَبَسَ

حِينَ يَبْصُرُ الْقَلْبُ مَا أَخْفَاهُ الْبَصَرُ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

في حضرة السورة التي أعادت ترتيب موازين الإنسان

ليست سورة عبس حكايةً عتابٍ عابرٍ وقع في لحظةٍ من لحظات الدعوة، ثم مضت اللحظة وبقي خبرها في القرآن؛ بل هي إعادةُ بناءٍ كاملةٍ لمقياس الإنسان، وتصحيحٌ ربانيٌّ دقيقٌ للعين التي تنظر، والقلب الذي يقدر، والعقل الذي يرتّب الناس بحسب ما يبدو منهم لا بحسب ما استقرّ في أعماقهم من استعدادٍ للهداية. إنّها سورةٌ تنقل البصر من لمعان الوجوه إلى صدق القلوب، ومن هيبة المكانة إلى جلال الطلب، ومن حسابات التأثير العاجل إلى ميزان الحق الذي لا يضلّ ولا يحايي، حتى يبدو العتاب في مطلعها باباً واسعاً إلى فلسفةٍ قرآنيةٍ متكاملةٍ في الدعوة، والإنسان، والنعمة، والمصير.

تبدأ السورة بحركةٍ صغيرةٍ فوق وجهٍ كريم: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾، لكنها لا تترك هذه الحركة تمرّ كما تمرّ انفعالات البشر التي لا يلتفت إليها أحد؛ لأنّ القرآن لا يبني الإنسان من ظاهره وحده، بل ينفذ إلى أدقّ مواضع الشعور، ويزن ما وراء النظرة والالتفاتة واختلاف النبرة. وقد تكون الحركة في ميزان الناس هينةً لا تستحق الذكر، ولكنها إذا تعلّقت بقيمةٍ يريد الوحي أن يقيمها في الأرض، صارت موضع تعليمٍ خالد، تتربّى به أجيال الدعاة والعلماء والمصلحين إلى قيام الساعة. فالقرآن لا يروي الواقعة ليشرّ بصاحبها، وحاشا مقام النبوة من ذلك، وإنما يكشفها ليظهر بها طريق الرسالة من أن تسلّل إليه موازين الجاهلية في ثوب المصلحة والدعوة والحكمة.

كان النبي ﷺ يحمل همَّ إيمان قومه، ويطمع أن يهتدي على يديه أصحاب المكنة في مكة؛ إذ لعلَّ إسلامهم يفتح للدعوة أبواباً موصدة، ويكسر عن المستضعفين شيئاً من العنت، ويمنح الحق مجالاً أوسع يُسمع. لم يكن منشأ الموقف كبيراً ولا احتقاراً، وإنما كان اجتهاداً صادراً عن الحرص على الرسالة، لكنَّ الله أراد للدعوة التي ستصنع العالم أن تتطهر حتى من الموازن التي قد تبدو نافعةً في ظاهرها؛ لأنَّ الحق لا يستمدُّ قوته من رضا الكبراء، ولا تصبح الكلمة أثقل لأنَّ غنياً أصغى إليها، ولا تفقد قدرها لأنَّ أعمى فقيراً جاء يطلبها.

وهنا تتجلى عظمة التربية القرآنية: إنها لا تكتفي بصلاح المقصد إذا اختلَّ الميزان، ولا تسمح للغاية الشريفة أن تمنح الوسيلة حصانةً من المراجعة. لقد كان المقصد نبيلاً، لكن الوحي أراد أن يكون الطريق إلى المقصد نبيلاً كذلك؛ فلا يُؤخَّر المقبل الصادق من أجل المعرض المتكبر، ولا يُترك القلب الذي جاء يسعى خوفاً ورجاءً انتظاراً لقلبٍ يرى نفسه مستغنياً عن الله. وبذلك لا تعاتب السورة شخصاً بقدر ما تهدم منطقاً كاملاً قد يتسلَّل إلى الدعوات والمؤسسات والثقافات: منطق الانبهار بأصحاب النفوذ، وقياس الأفكار بعدد من يصفق لها من الوجهاء، والتعامل مع الإنسان بحسب ما يستطيع أن يقدمه للشروع، لا بحسب حقه الإنساني واستعداده للهداية.

وفي قلب المشهد يقف عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه؛ رجلٌ حُجب عنه ضوء البصر، لكن قلبه كان يتحرَّك نحو النور. جاء لا يرى الوجوه التي انشغل بها المجلس، وربما لم يدرك طبيعة اللحظة ولا منزلة الجالسين، ولكنه أدرك حاجته إلى الله؛ فجاء يسعى، وفي قلبه خشية، وعلى لسانه سؤال. كان أعمى في عرف الجسد، لكنه في ميزان السورة أبصر من أولئك الذين فتحت لهم العيون وأغلق الاستغناء قلوبهم. وهكذا تقيم السورة مفارقتها البديعة

منذ بدايتها: قد يفقد الإنسان نافذةً من نوافذ الحس، وتظلّ روحه كلّها مفتوحةً على السماء؛ وقد يمتلك عينيّن حادثين، ثم يعيش في ظلام لا يبدّده ضوء.

ولم تذكر السورة اسم ابن أم مكتوم، كما لم تسم أولئك الذين كان النبي ﷺ يخاطبهم؛ لأنّ القضية أوسع من الأسماء، وأبقى من الأشخاص. إنّها ترسم نمطين من الإنسان يتكرران في كل عصر: إنساناً يأتي إلى الحقيقة فقيراً إليها، يجاهد ضعفه ويطلب أن يتطهّر؛ وإنساناً تستغرقه صورة استغناؤه، فيظنّ أن الحقيقة هي التي ينبغي أن تأتي إليه، وأن تخطب وُدّه، وأن تنتظر رضاه. وبين هذين النموذجين يعلن القرآن انخيازه الواضح: القيمة لمن جاء يسعى، لا لمن جلس يستغني؛ ولمن يخشى، لا لمن يتعالى؛ وللقلب الذي يطرق باب الله، لا للوجه الذي تتعلّق به أنظار الناس.

غير أنّ السورة لا تقف عند مجلس الدعوة الأول؛ فهي تنتقل من عتاب النظرة إلى جلال القرآن: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۖ فَنِّ شَاءَ ذِكْرُهُ﴾. وكأنّها تقول إنّ هذا الوحي أعزّ من أن يُعرض على الناس عرض المستجدي، وأكرم من أن يتوقّف سلطانه على قبول متكبّر أو إعراضه. إنّ تذكراً مودعاً في صحفٍ مكّمة، مرفوعة مطهّرة، بأيدي سفرةٍ كرامٍ برّة؛ فإذا عرف حامل الدعوة مصدر الكلمة التي يحملها، تحرّر من ذلّ التعلّق بالمتلقين، ولم يعد يبيع كرامة الحق في سوق القبول الاجتماعي. البلاغ واجب، والحرص رحمة، أما الهداية فلكلّ لله، والوحي لا يزداد شرفاً بإقبال عظيمٍ من عظماء الأرض، وإنما يزداد المقبولون عليه شرفاً بقدر ما يفتحون له قلوبهم.

ثم تفاجئ السورة الإنسان بصيحةٍ تقطع عليه استرساله في الغرور: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾. ومن مجلسٍ صغيرٍ في مكة تنفتح أمامنا قصة الإنسان كلّها: من أي شيء خلقه

الله؟ وكيف قدره؟ وكيف يسّر سبيله؟ ثم كيف أماته فأقبره؟ وكيف إذا شاء أنشره؟ إنّ الإنسان الذي يتصرف وكأنه مركز الوجود لم يبدأ إلا من نقطة، ولم يرسم ملامحه بيده، ولم يختر زمن قدومه ولا هيئة جسده ولا مواهبه، وسوف ينتهي إلى قبرٍ لا ترافقه إليه ألقابه ولا مجالسه ولا صورته التي تعب في تليعها. وبين النقطة والقبر نتضخم الأنا حتى تنسى مادتها الأولى ونهايتها الأخيرة؛ فتأتي السورة لتتقب هذا الانتفاخ بإبرة الحقيقة.

ولا تكتفي السورة بتذكيره بأصل خلقه، بل تدعوه إلى النظر في طعامه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾. إنّ اللقمة التي يرفعها إلى فمه خاتمة ملحمة كونية كاملة: ماءٌ صَبَّ من السماء، وأَرْضٌ شُقَّتْ، وحبُّ نبت، وعنبٌ وقضب، وزيتونٌ ونخل، وحدائق غلب، وفاكهةٌ وأب. كلّ لقمةٍ تحمل وراءها سماءً وأرضاً وماءً وتراباً وضوءاً وزمناً وتقديراً؛ لكن الألفة تسرق الدهشة، والتكرار يحجب المعجزة، فيأكل الإنسان النعمة وينسى النعم، وينتفع بالنظام ثم يتعامى عن الحكمة التي أقامته.

هنا تتحوّل السورة من تصحيح النظرة إلى تربية النظر. ففي أولها وقع العتاب بسبب جهةٍ اتجه إليها الاهتمام، وفي وسطها يأتي الأمر: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ﴾؛ كأن المشكلة لم تكن في العين، بل في منهج الرؤية. أين تنظر؟ وكيف تنظر؟ وماذا ترى خلف الأشياء؟ قد ترى في الغنيّ قوته ولا ترى استغناؤه، وترى في الفقير ضعفه ولا ترى خشيته، وتأكل الطعام فتري مذاقه ولا ترى الرحمة التي ساقته إليك. والسورة تعيد تدريب البصيرة حتى ترى حقائق الأشياء لا قشورها، وأقدار الأرواح لا مظاهر الأجساد، ويد التدبير لا سطوح النعم.

ثم تبلغ السورة ذروتها حين تنفجر الصاخّة، فتساقط جميع العلاقات التي ظنّ الإنسان أنها حصونه الأخيرة: يفرّ المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبه وبنيه. لا لأنّ المودة كانت

وهما، بل لأنّ الهول يملأ النفس حتى لا يبقى فيها متسع لأقرب قريب: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾. هناك لا تنفع المكانة التي شغلت المجلس الأول، ولا الثروة التي صنعت الاستغناء، ولا القرابة التي منحت الإنسان دفئه في الدنيا؛ وإنما تنكشف الوجوه عن حقائقها: وجوهٌ مسفرةٌ ضاحكةٌ مستبشرة، ووجوهٌ عليها غبرةٌ ترهقها قفرة.

إنّ السورة التي بدأت بعبوسةٍ عابرةٍ تنتهي بوجوهٍ استقرّ عليها مصيرها الأبدي. وبين العبوس الأول والوجوه الأخيرة تمتدّ رحلة الكآب: من ملامح الوجه إلى حقيقة القلب، ومن تفاوت الناس في أعين البشر إلى تفاوتهم في ميزان الله، ومن الاستغناء الكاذب إلى الفقر الوجودي، ومن الطعام الذي يملأ الجسد إلى التذكرة التي تحيي الروح، ومن اجتماع الأسرة في الدنيا إلى فرارها ساعة الصاخّة، ومن العمى الحسي الذي لا يضرّ صاحبه إلى عمى البصيرة الذي يصنع الكفر والفجور.

وسيقوم منهجنا في هذا الكآب على قراءة السورة بوصفها بناءً واحدًا تتآزر مشاهدته ولا تتناثر؛ فلا نفصل العتاب عن التذكرة، ولا التذكرة عن خلق الإنسان، ولا الخلق عن الطعام، ولا الطعام عن البعث، ولا البعث عن الوجوه. وسنبداً من الدلالة اللغوية والسياق والنظم، ثم نعبّر منها إلى التأمل الإيماني والإنساني، من غير تحميل للنص ما لا يحتمل، ولا إطلاقاً للخيال بعيداً عن هداية الآيات. فالتدبر الحق ليس أن نجعل القرآن صدىً لأفكارنا، بل أن نحسن الإصغاء إليه حتى يعيد تشكيل أفكارنا ومشاعرنا وموازيننا.

إنّنا لا ندخل سورة عبس لنراقب موقفاً مضى، بل لعرض عليها وجوهنا نحن: كم عابسٍ في داخلنا لم نتبه إليه؟ وكم قلبٍ صادقٍ مررنا به لأنّ مظهره لم يغرّنا؟ وكم متكبرٍ بذلنا له الاهتمام لأنّ قربه يعدّنا بشيءٍ من القوة؟ وكم نعمةٍ التهمناها من غير أن ننظر إلى الطريق

الطويل الذي قطعه لطف الله حتى أوصلها إلينا؟ وكم علاقةٍ حسبتها نجاةً، ثم نسينا أنّ لكل امرئٍ يومئذٍ شأنًا يغنيه؟

هذه السورة مرآةٌ قصيرة، لكنها لا تترك في النفس موضعاً لا تكشفه. تعلّم الداعية أين يضع قلبه، وتعلّم العالم لمن يفتح مجلسه، وتعلّم صاحب الكلمة ألا يذلّ الحقيقة لأحد، وتعلّم الإنسان أن يتواضع لمادته الأولى، وأن يشكر لقمته، وأن يستعدّ لصاحته، وأن يعمل من الآن للوجه الذي سيحمله يوم تكشف الوجوه.

فإذا خرجنا من هذه الرحلة، لم يعد السؤال: لماذا عبس وتولّى؟ بل: كم مرةً عبسنا نحن عن روح جاءت تسعى؟ وكم مرةً تولّينا عن حقيقةٍ وقفت عند أبوابنا، لأنّ أبصارنا كانت مشغولةً بمن لا يريد أن يرى؟

الفصل الأوّل

عِبْرَةُ الْوَجْهِ: حِينَ يَكْشِفُ الْوَحْيُ مَا يُمْرُ خَفِيًّا

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهِ يَزْكَى ۚ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ ۚ الذِّكْرَى﴾

لم تبدأ السورة باسم من أسماء الله، ولا بقسمٍ من أقسام القرآن، ولا بنداءٍ يفتح السمع على تكليفٍ جديد؛ بل بدأت بحركةٍ بشريةٍ بالغة الخفاء: وجهٌ تغيرت ملامحه لحظة، وجسدٌ مال عن قادمٍ لم يأت في الوقت الذي رآه صاحب المجلس مناسباً. وكأنّ الوحي أراد أن يقول منذ الكلمة الأولى: إنّ بناء الإنسان يبدأ من المواضع التي لا يراها الناس مهمّة، وإنّ الطريق

إلى الكمال لا يُعبد بالقرارات العظيمة وحدها، بل بمراجعة النظرة، وضبط الملامح، وتطهير الانفعال الخفي الذي قد يعبر الوجه قبل أن ينطق به اللسان.

﴿عَبَسَ﴾؛ كلمة قصيرة، لكنها تحمل صورةً كاملة: انقباضٌ في الوجه، والتقاءٌ بين الحاجبين، وظلٌّ ضيقٍ مرَّ على الملامح. لم يقع سبٌّ، ولم تصدر إهانة، ولم يُدفع السائل عن المجلس، وإنما كانت عبوسةٌ لا يراها الأعمى الذي وقعت بسببه. ومع ذلك رآها الله، وأنزل فيها قرآنًا يُتلى؛ لأنَّ التربية الربانية لا تقف عند حدود الأذى المحسوس، بل تنفذ إلى منبع الشعور قبل أن يصير قولاً أو فعلاً. والله يريد للرحمة في قلب نبيه ﷺ أن تبلغ من الصفاء مرتبةً لا يجد عندها المقبل على الهدى حتى ظلاً من ظلال الإعراض، وإن كان لا يبصره بعينه.

وهنا تظهر دقة الميزان القرآني؛ فليس كل ما لا يراه المظلوم يسقط من الحساب، وليس كل ما لم يجرح السمع بريئاً من معنى الجفاء. قد لا يسمع الإنسان الكلمة التي قيلت عنه، وقد لا يرى الوجه الذي عبس في حضوره، غير أنَّ الله يريد للنفوس المؤمنة أن تكون نقيةً في الغيب كما هي مهذبةٌ في العلن، وأن تحترم الإنسان لا لأنَّه يراقبها، بل لأنَّ الله يراقبها. الأخلاق التي لا تعمل إلا تحت نظر الناس صورةٌ اجتماعية، أما الأخلاق التي تبقى في حضرة الأعمى والغائب والضعيف، فهي عبادةٌ يعرف القلب أنَّ الله شاهدها.

ثم أضاف الآية: ﴿وَتَوَلَّى﴾، فلم تكن العبوسة وحدها هي المشهد، بل صاحبها تحوَّل في جهة الاهتمام؛ انصرف الوجه أو الجسد إلى أولئك الذين كان النبي ﷺ يرجو إسلامهم. والفرق كبيرٌ بين أن يُمنع الإنسان من الحق، وبين أن يُعطى إشارةً خفيةً بأنَّ وقته أقلُّ قيمةً من أوقات الآخرين، وأنَّ حضوره يمكن تأجيله لأنَّ المجلس مشغولٌ بمن يُظنَّ أنهم أهم. وقد

لا تُقال هذه الرسالة بالكلمات، لكنها تصل عبر ترتيب الالتفاتات، وطول الإصغاء، ودفع الاستقبال، وبرودة التجاوز.

إنّ البشر يقرأ بعضهم بعضاً بالوجه قبل العبارات. وقد ينسى المرء جملةً سمعها، لكنه لا ينسى كيف أشعره الآخر بوجوده: هل أحسّ أنه مرئيٌّ ومحترم، أم أحسّ أنه عبءٌ ثقيلٌ طرأ على لحظةٍ ليست له؟ ولهذا جمع القرآن بين العبوس والتوّلّي، لأنّ الوجه حين ينقبض ثم ينصرف يصنع في النفس خطاباً كاملاً، ولو ظلّ اللسان ساكناً.

لكنّ النظم القرآني بلغ من اللطف والأدب مبلغاً عجيّباً، فلم يقل في بدء العتاب: عبست وتولّيت، بل جاء بصيغة الغائب: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾. لم يواجهه النبي ﷺ بالخطاب في اللحظة الأولى، وكأنّ الرحمة الإلهية تحيط بالعتاب، فتستتر صاحب المقام الكريم وهو يرئى أمام الأمة. ثم ينتقل السياق بعد ذلك إلى الخطاب: ﴿وَمَا يَذُرِّكَ لَعَلَّه يَزَكِّي﴾، فيقترب العتاب من القلب بعد أن مهّد له بلطف الغيبة. وهذا من عجيب التربية: بيان لا يخفي الخطأ، ورحمة لا تهدر الكرامة؛ تصحيحٌ كاملٌ لا يصحبه تشهير، وعتابٌ واضحٌ لا يتحوّل إلى انتقاص.

وفي هذا درسٌ لمن جعلوا من النصيحة ساحةً لاستعراض تفوقهم الأخلاقي؛ فليست الغاية من كشف الخطأ أن نهزم صاحبه، بل أن نردّه إلى الأكل. وقد تكون العبارة صحيحةً في معناها، لكنها فاسدةٌ في روحها إذا أُريد بها الإذلال. أمّا الخطاب القرآني فيجمع بين قوة الحق وجمال الرحمة؛ فلا يجامل في المعيار، ولا يقسو على القلب الذي يريد إصلاحه.

الأعمى الذي رأى طريقه

ثم كشفت السورة سبب الموقف: ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾. ولم يقل القرآن: أن جاءه عبد الله بن أم مكتوم؛ لأنّ ذكر الصفة هنا جزءٌ من بناء المفارقة. لقد جاءه الأعمى، ولكنه جاء.

حُرْمَ البصر، ولم يُحرم إرادة الوصول؛ غابت عن عينيه معالم الطريق، لكنّ قلبه دلّه على مجلس النبوة. وربما احتاج في مجيئه إلى من يقوده، وربما تعرّث في الطريق، وربما شقّ عليه ما لا يشقّ على المبصرين؛ غير أنّ الحاجة إلى الهدى كانت أقوى من عجز الجسد.

كأنّ الآية تضعنا أمام معادلةٍ جديدة: لا تسأل عما فقدّه الإنسان قبل أن تنظر إلى ما فعله بما بقي لديه. فقد ابن أم مكتوم بصره، لكنه لم يفقد همّته؛ وربما امتلك أولئك الذين شُغل بهم المجلس أبصارهم وقوتهم وأموالهم، لكنهم فقدوا إرادة الاقتراب. فأبى الفريقين كان أولى بالعناية: جسدٌ عاجزٌ يسوق قلباً مقبلاً، أم جسدٌ مكتملٌ يحمل قلباً مستغنياً؟

إنّ القصور الظاهر لا يساوي قصور الروح. قد يعيش إنسانٌ في جسدٍ أثقلتْه العاهة، لكنّ روحه تسبق الأصحاء إلى المعنى، وقد يمشي آخر على قدمين قويتين، ولا يقطع في طريق الحقيقة خطوةً واحدة. ولذلك لا يرثي القرآن ابن أم مكتوم، ولا يصوره ضحيةً تحتاج إلى شفقةٍ مستعلية، وإنما يقدّمه صاحب فعلٍ واختيار: جاء، وسعى، وخشي، وطلب أن يتزكّى. إنّ قيمته ليست في ضعفه، بل في الطريقة النبيلة التي قاوم بها ضعفه.

وما أكثر الذين تحبسهم أعين الناس داخل أوصافهم: هذا فقير، وهذا أعمى، وهذا مجهول، وهذا قليل الشأن. فتغدو الصفة حائطاً يحجب جوهر الإنسان، فلا يرى منه إلا ما نقص، ولا يلتفت إلى ما اكتمل. أمّا القرآن فذكر العمى ليقبّل دلالته؛ فما بدا موضع نقصٍ صار خلفيةً يظهر عليها كمال البصيرة، وما ظنّه المجتمع سبباً للتأخير جعله الله سبباً لتقديم صاحبه في كتابٍ خالد.

لقد رفع القرآن ذلك القادم البسيط حتى صار عتابٌ خير الخلق ﷺ مرتبطاً بحقه، وصارت خطاه المتعثرة على طرق مكة تُسمع في تلاوة المؤمنين إلى قيام الساعة. لم يكن له سلطانٌ

يحميه، ولا مالٌ يفرض حضوره، ولا قبيلةٌ تجعل المجلس يتهيبُ إغفاله؛ لكنّ معه قلباً أراد الله له أن يُرى. وحين لا يملك الضعيف منبراً يدافع عنه، يتولى الوحي ردّ الاعتبار إليه، فيتعلم العالم أن الإنسان قد يكون مجهولاً في الأرض، معروفاً في السماء.

محيٌّ يُغيّر ميزان المجلس

قال تعالى: ﴿أَنْ جَاءَهُ﴾، فجعل مجرد المجيء حاملاً لدلالة عميقة. إنّ المقبل على الخير قد قطع نصف الطريق بإقباله، ومن جاءك طالباً للمعنى فقد منحك أثمن ما يملك: انتباهه، وثقته، واعترافه بحاجته. ليست كل القلوب سواءً في قابلية التذكّر، ولا كل النفوس متساويةً في الاستعداد للتغيير؛ لذلك كان من الحكمة أن تُسقى الأرض التي فتحت شقوقها للمطر قبل الصخرة التي ينزلق الماء عن سطحها.

غير أنّ الإنسان كثيراً ما يخذع ببريق النتائج الكبيرة، فيذهب إلى البعيد الذي يرجو منه أثراً واسعاً، ويغفل القريب الذي يوشك أن تفتح فيه ثمرة حقيقية. وقد ينفق المربي طاقته في استرضاء من لا يريد، بينما يقف عند بابه قلبٌ صغيرٌ ينتظر كلمةً تنقذه. وقد تطارد المؤسسات أسماءً كبيرةً تضيف إلى صورتها لمعناً، ثم تهمل إنساناً مغموراً يحمل صدقاً لو رُعي لصار أثره أبقي من كل ذلك اللهعان.

لا تعلمنا السورة إهمال أصحاب المكانة أو ترك دعوتهم؛ فالرسالة للناس جميعاً، والهداية خيرٌ يُبدل للغني والفقير، والقوي والضعيف. لكنها تمنعنا أن نجعل المكانة الدنيوية معياراً لقيمة المخاطب، أو أن نضحي بالمقبل في سبيل استمالة المعرض، أو أن نتصور أن انتصار الحق متوقّف على شخصٍ يظنّ نفسه أكبر من أن يصغي إليه. الحكمة ليست أن تهمل المؤثرين، بل ألا يجعلك تأثيرهم تنسى الإنسان.

﴿وَمَا يُدْرِكُ﴾: حدود المعرفة البشرية

ثم انتقل الخطاب من وصف الواقعة إلى كشف ما وراءها: ﴿وَمَا يُدْرِكُ لَعَلَّ يَزَكِّي﴾. وهنا يمسّ القرآن أصل المشكلة: إنك ترى الحاضر، لكنك لا ترى المآل؛ ترى هيئة الرجل، ولا ترى الإمكان المودع في قلبه؛ ترى أثر إسلام كبير القوم في حساب اللحظة، لكنك لا تدري أي الأرواح ستبلغ بالتزكية منازل لا تخطر لك على بال.

﴿وَمَا يُدْرِكُ﴾ ليست سؤالاً يطلب جواباً، بل نافذة تفتح على مساحة الجهل البشري. كم من إنسانٍ حكمنا على بدايته لأننا لم نرْ نهايته، وكم من بذرةٍ احتقرنا صغرها ولم ندرك الغابة المطوية فيها، وكم من قلبٍ مررنا به سريعاً لأنّ مظهره لم يخبرنا عن المملكة المستترة في داخله. نحن لا نعلم من الذي ستوقظه كلمة، ولا من الذي سيعيد توجيه حياته موقفٌ رحيم، ولا من الذي يخرج من مجلسٍ صغيرٍ ليصير بعد أعوامٍ حاملاً للخير في أمة.

إنّ هذا السؤال يهدم غرور التقدير البشري. فالمرتبّي لا يصنع الهداية، والعالم لا يمتلك مفاتيح القلوب، والداعية لا يعرف سلفاً مَنْ سيكون ثمرة كلماته. ليس عليه أن يقرأ الغيب، وإنما عليه أن يعدل في البذل، وأن يحسن استقبال طالب الحق، وأن يترك لله شأن الإنبات. فربّ كلمة أُلقيت إلى إنسانٍ لا يؤبه له، فحملها في قلبه حتى صارت حياةً لأناسٍ لم يلتقِ بهم قائلها قط.

وكم من مشهورٍ أحاطته الكلمات ثم لم تنفذ إلى قلبه، وكم من مجهولٍ التقط جملةً واحدةً فغيّرت مجرى عمره. الانتشار ليس دليل النفاذ، وكثرة السامعين لا تعني كثرة المنتفعين؛ فقد يسمعك ألفٌ بأجسادهم ولا يحضر منهم قلبٌ واحد، وقد تجلس إلى إنسانٍ منفردٍ فيأخذ عنك الكلمة بكليّته، ثم يهبها للعالم بعد أن ينضجها الصدق في روحه.

التزكية: أن يخرج الإنسان من ركام نفسه

قال تعالى: ﴿لَعَلَّه يَرْكُبُ﴾ ، ولم يقل: لعله يعلم، لأن الغاية الأعمق للوحي ليست تكديس المعلومات، بل تطهير الإنسان وتمييزه وإخراجه من أسر النقص إلى أفق القرب من الله. والتزكية في أصل معناها تجمع بين الطهارة والنماء؛ فهي إزالة لما يفسد النفس، وإثراء لما أودع الله فيها من قابلية الخير. ليست محوًا للشئ وحده، بل تفجيرًا لإمكانات الروح؛ وليست انكسارًا عن الحياة، بل تحولًا في طريقة عيشها.

كان ابن أم مكتوم يطلب كلمة، لكن الله رأى في طلبه مشروع تزكية. وقد يسأل الإنسان سؤالًا صغيرًا، بينما يفتح السؤال في داخله بابًا كبيرًا؛ وقد يأتي إلى مجلس علم طلبًا لحكم أو معنى، ثم تكون الكلمة بداية مصالحة مع الله، أو اعتناق من ذنب، أو تصحيح لعمرٍ كامل. من هنا تصبح العناية بالسائل عنايةً بمستقبله الذي لم يولد بعد، ويغدو الإصغاء إليه مشاركة في ولادة نسخةٍ أطهر من نفسه.

والتزكية لا تحدث بالقسر؛ فالآية تقول: ﴿لَعَلَّه يَرْكُبُ﴾ ، فتترك مساحةً لإرادة المتلقي واستجابته. إنَّ المربي يفتح النافذة، لكنه لا يستطيع أن يُجبر القلب على استقبال الضوء. يستطيع أن يذكّر، ويبيّن، ويرفق، ويصبر؛ أما التحول الداخلي فسرٌّ بين العبد وربّه. وهذا يحرّر صاحب الرسالة من وهم السيطرة على النتائج: ليست مهمتك أن تضمن الثمرة، بل أن تصون البذرة، وتحسن غرسها، وآلا تبهين التربة التي قد تحتضنها.

وفي قوله ﴿لَعَلَّه﴾ تكريمٌ للإمكان. فالإنسان لا يُعامل بما هو عليه وحده، بل بما يمكن أن يصير إليه. وهذه من أرحب نظرات القرآن إلى البشر: ألا تحبس أحدًا في ماضيه، ولا تختصره في عجزه، ولا تغلق عليه أبواب التحول؛ فربّ مذنبٍ جاءت لحظته، وربّ غافلٍ

قاربت يقطته، وربّ من تراه قليل الحظ من المعرفة يحمل صدقاً يختصر عليه من الطريق ما لا تختصره كثرة الكتب.

الذكرى التي تبحث عن قلبٍ حي

ثم قال سبحانه: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾. والتذكّر ليس تلقّي شيءٍ غريبٍ عن الفطرة، بل استعادة حقيقة دفنتها الغفلة تحت ركام الأيام. القرآن يذكّر لأنّ في الإنسان معرفةً أولى بربه، وإحساساً أصيلاً بالحق، لكن الضوضاء تطمره، والشهوة تشوشه، والألفة مع النعمة تنسيه. تأتي الذكرى فلا تخلق القلب من جديد، وإنما تزيل التراب عن مرآته ليرى ما كان موجوداً وراء العتمة.

وقد فرقت الآية بين التزكّي والتذكّر، لأنّ الناس لا يقفون في الموضع نفسه من الطريق. فبهم من يحتاج إلى تطهير عميق يعيد بناء نفسه، ومنهم من يعرف الحق لكنه غفل عنه، فتوقظه اللمسة وتعيده إلى موضعه. وقد تكون الكلمة الواحدة تزكيةً لشخص، وتذكيراً لآخر، ووجهةً على ثالث؛ لأنّ القرآن واحد، لكن القلوب تستقبله بحسب ما فيها من استعداد.

ولم تقل الآية: فتقع عليه الذكرى، بل قالت: ﴿فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾؛ فالميزان ليس في وصول الصوت إلى الأذن، وإنما في تحوّلِهِ إلى منفعةٍ داخل القلب. كم من موعظةٍ مرّت بالأسماع ولم تتجاوزها، وكم من آيةٍ تكررت على الألسنة حتى حجت العادة وهجها. ليست المشكلة دائماً في غياب الذكر، بل قد تكون في غياب القابلية للاستماع به. القلب المتواضع يحوّل القليل إلى حياة، والقلب المستغني يحوّل الكثير إلى أصواتٍ تتكسر على جدار غروره.

وكان ذلك الأعمى مؤهلاً للانتفاع؛ لأنّه جاء معتقداً أنّ لديه نقصاً يريد إكماله. وهذه بداية كل معرفة صادقة: أن يعرف الإنسان موضع حاجته. أما من جاء ممتلئاً بنفسه، متوهماً أنه لا يحتاج إلى شيء، فلن يجد في داخله مكاناً تنزل فيه الكلمة. إنّ الأوعية لا تستقبل الماء إلا بقدر فراغها، والقلوب لا تمتلئ بالهدى حتى تتخفف من ادّعاء الاكتفاء.

العتاب الذي شرف صاحبه

قد يقرأ قارئ مطلع السورة قراءةً سطحية، فيظنّ أنّ الغاية منه تسجيل موقفٍ على النبي ﷺ، بينما الحقيقة أنّ العتاب نفسه شاهدٌ على علوّ منزلته، وشاهدٌ على ربانية الرسالة التي حملها. فالقرآن لم يكن نصّاً يصنعه النبي ليجمّل صورته أمام أتباعه؛ إذ لو كان من عنده لما أثبت فيه عتاباً يُتلى في المحاريب إلى آخر الزمان. لكنه كلام الله الذي يرّي نبيّه، ويقيم ميزان الدعوة فوق الأشخاص، ويعلن أنّ الحقيقة أعلى من أن تُحجب حمايةً لصورة أحد.

ولأنّ النبي ﷺ أكمل الناس عبوديةً، تلقى العتاب كما يتلقى القلب الطاهر نوراً جديداً؛ لم يجادل، ولم يبرر، ولم يخفِ الآيات، بل بلغها كما أنزلت، وصارت جزءاً من القرآن الذي يعلمه لأصحابه. وتلك منزلةٌ من الصدق لا يبلغها إلا نبي: أن يبلغ الناس الخطاب الذي عوتب فيه، لأنّ أمانة الوحي عنده أعظم من حظ النفس في صورتها.

ثم تحوّل العتاب في سيرته ﷺ إلى مزيدٍ من التكريم لابن أم مكتوم، فكان يرحّب به ويقول له ما يدل على مكانته، واستخلفه على المدينة في بعض المواطن، وأسند إليه من المسؤولية ما يكشف أن الإسلام لم يجعله أسير إعاقته. وهكذا لم يبقَ التصحيح شعوراً داخلياً، بل صار سلوكاً ومؤسسةً ومشاركةً في المجتمع. فالتوبة من خطأ الميزان لا تكتمل بالأسف عليه وحده، وإنما بإعادة ترتيب الواقع على مقتضى الحق.

عَبَسَ: المرأة التي تتجه إلينا

ليس من الوفاء للسورة أن نقف طويلاً عند عبوسة وقعت في حضرة النبوة، ثم نخرج من الآيات من غير أن نسأل عن العبوس المستقر في وجوهنا. إنّ القرآن لم يخلّد الواقعة كي ننظر من بعيد، بل كي تقترب المرأة منا: كيف نستقبل من لا نرجو منه منفعة؟ كيف نصغي إلى الضعيف حين يقطع علينا حديثاً مع القوي؟ كيف نغيّر ملامحنا حين يطلب الفقير وقتنا؟ وهل نمنح المجهول من الاحترام ما نمنحه لصاحب الاسم اللامع؟

قد لا نعبس بوجوهنا، لكننا نعبس ببرودة الرد، وإيرجاء الرسائل، وبالنظر المتكرر إلى الساعة، وبالاشغال عن المتكلم، وبمنح بعض الناس بقايا انتباهنا بينما نفتح لآخرين أبواب الروح. وقد لا نتولّى بأجسادنا، لكننا نتولّى حين نصنّف البشر قبل أن نسمعهم، وحين نرى حاجاتهم أثقلاً، وحين نقيسهم بما يملكون لا بما يحملون من صدق.

وكم من ابن أم مكتومٍ يعصر يطرُق أبواب المعرفة فلا يجد إلا لغةً معقدةً لم تُصنع له، أو مكاناً لا يراعي ضعفه، أو عالماً مشغولاً بمجهوره عنه، أو مؤسسةً تحتفي بصور الشمول ثم تجعل الوصول إليها امتحاناً يومياً لذوي الاحتياجات. إنّ تكريم الضعيف لا يكون بالخطب العاطفية وحدها، بل بإزالة الحواجز التي تمنعه من المشاركة، وبأن يرى صاحب حقٍّ وطاقَةٍ ورسالة، لا مجرد موضوعٍ للشفقة.

وكم من طالبٍ متردٍ جاء يسأل، فاستقبله المعلم بالسخرية، فعاد يحمل جرحاً بدل المعرفة. وكم من شابٍ أراد أن يتوب، فذُكِرَ بماضيه حتى ظنّ أن أبواب الطهارة خلقت لغيره. وكم من قلبٍ كان على مسافةٍ كهذه من الحياة، غير أنّ صاحب الكلمة كان مشغولاً بمن يضيف

إلى شهرته عددًا جديدًا. إننا لا نعلم كم من احتمالات الخير أطفأها عبوسٌ صغير، ولا كم من أبواب الشر فتحتها تولى ظنناه حينًا.

ميزانٌ جديدٌ للإنسان

يضع مطلع السورة قاعدةً لا تنقضي: قيمة الإنسان ليست فيما يملك، بل في الجهة التي يسعى إليها. ذلك الأعمى لم يكن يملك بصراً ولا مكانةً اجتماعيةً بارزة، لكنه كان يملك الحركة نحو النور، وأولئك المملأ كانوا يملكون أدوات التأثير، لكنهم وقفوا في جهة الاستغناء. وفي ميزان القرآن كانت خطوة الأعمى أثقل من جلوسهم، وخشيته أكرم من جاههم، وسؤاله أولى من صمتهم المتعالي.

فلا تسأل أولاً: من هذا القادم؟ بل اسأل: إلى أين يتجه؟ ولا تنظر إلى الثوب الذي يرتديه، بل إلى الحاجة التي يحملها قلبه. قد يأتيك الحق في هيئةٍ لا تثير إعجابك، وقد يطرق بابك الخير بصوتٍ متردد، وقد يخبئ المستقبل الكبير في إنسانٍ صغيرٍ لا يعرفه أحد. إن الله لا يطلب منا أن نعرف الغيب، بل أن نتواضع أمام احتمالات فضله، وآلا نغلق الأبواب التي لا ندري من سيدخل منها.

وهكذا لا تنتهي الآيات الأربع عند تصحيح حادثةٍ في مجلس، بل تؤسس لأخلاق النظر والإصغاء والتربية والدعوة. تقول لنا إن الملاحم مسؤولية، وإن الإقبال قيمة، وإن الضعف الظاهر قد يستر قوةً روحية، وإن البشر لا يملكون معرفة المآلات، وإن القلب القابل للذكرى أثمن من المكانة المعرضة عنها.

بدأت السورة بوجهٍ عبس، لكنها أرادت أن تفتح وجوها للناس، وذكرت أعمى، لكنها أرادت أن تعالج عمى موازيننا؛ وروت تولى وقع لحظة، لكي تمنع الأمة من أن تنموت قروناً

عن المستضعفين وطالبي الهداية، ففي اللحظة التي جاء فيها الرجل لا يرى، كان الوحي يعلم
العالم كله كيف يرى.

الفصل الثاني

بَيْنَ مَنْ اسْتَغْنَى وَمَنْ جَاءَ يَسْعَى: انْقِلَابُ مَوَازِينِ الْقِيَمَةِ

﴿أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى﴾ فَإِنَّ لَهُ تَصَدَّقْ ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي﴾ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ فَإِنَّ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿

بعد أن كشفت الآيات الأولى حركة الوجه، نفذت هذه الآيات إلى عمق المشهد، فلم تعد القضية عبوساً وتولياً فحسب، بل صارت ميزاناً كاملاً يضع نموذجين من البشر في جهتين متقابلتين: رجلاً استغنى فتصدي له، ورجلاً جاء يسعى وهو يخشى فتلهي عنه. وبين الاستغناء والسعي، وبين التصدي والتلهي، يرسم القرآن خريطة أخلاقية للدعوة، ويعيد ترتيب الأولويات على أساس استعداد القلب، لا على أساس رتبة صاحبه بين الناس.

لم يقل القرآن: أما الغني، بل قال: ﴿أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى﴾؛ لأنّ الغنى المادي ليس موضع الذم في ذاته، والفقر ليس فضيلةً لمجرد كونه فقراً. قد يكون الغني خاشعاً شاكراً، وقد يكون الفقير متكبراً معانداً، وإنما العلة في الاستغناء: ذلك الشعور الداخلي الذي يوهم الإنسان أنّه مكتفٍ بنفسه، وأنه لا يحتاج إلى هداية تلوّه، ولا إلى حقّ يراجعه، ولا إلى ربّ يفتقر إليه.

الاستغناء هنا ليس ما في اليد، بل ما استقرّ في القلب. قد لا يملك الإنسان من الدنيا إلا القليل، لكنه يحمل نفساً مستغنيةً لا تقبل نصحاً ولا تعترف بنقص؛ وقد تُفتح لآخر خزائن الأرض، ثم يظلّ قلبه واقفاً على باب الله، يعلم أنّ ما بين يديه عارية، وأنّ أنفاسه نفسها مددٌ

لا يملكه. ولهذا لم يحارب القرآن المال، بل حارب الوهم الذي قد ينبت حوله: ﴿كَلَّا إِنَّ
الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْغَىٰ ۚ أَن رَّاهُ اسْتَغْنَىٰ﴾. لم يقل: أن استغنى حقيقةً، بل ﴿أَن رَّاهُ اسْتَغْنَىٰ﴾،
لأنَّ الإنسان لا يستغني قط، لكنه قد يبتلى بأن يرى نفسه كذلك.

إنَّه استغناء النظر لا استغناء الحقيقة، وتخيّل الاكتفاء لا حصوله. فما أكثر ما يحتاج
الإنسان في اللحظة التي يعلن فيها أنه لا يحتاج! يحتاج إلى الهواء الذي لا يصنعه، وإلى القلب
الذي لا يأمره بالنبض، وإلى العافية التي لا يضمن بقاءها، وإلى الأرض التي تحملها، وإلى
الله الذي أمسك عنه العدم لحظةً بعد لحظة. ومع ذلك قد تنتفخ النفس بما أُعطيت،
فتوهم أنَّ النعمة دليل استقلالها، مع أنَّها في حقيقتها دليل افتقارها؛ إذ كل عطاءٍ يصل
إليها شاهدٌ على أنَّها لم تكن تملكه من ذاتها.

فقرٌ يتنكر في هيئة غنى

الاستغناء من أخطر أمراض القلب؛ لأنَّ صاحبه لا يشعر بمرضه، بل قد يعدّه علامة قوةٍ
واكتمال. المريض الذي يعرف مرضه يبحث عن الدواء، أما المستغني فيغلق أبواب العلاج؛
لأنَّه يرى النصيحة تدخلاً، والمراجعة انتقاصاً، والاعتراف بالخطأ هزيمة. وهكذا لا يمنع من
التزكي انعدام الطريق، بل يمنعه توهمه أنه وصل.

إنَّ أكثر الناس فقراً إلى الهداية قد يكون أشدهم إحساساً بأنه غنيٌّ عنها، وأحوج الناس إلى
المعرفة قد يكون أعلى الناس صوتاً بادعاء امتلاكها. فالجهل البسيط يفتح باب السؤال، أمَّا
الجهل المركب فيبني حول النفس قصراً من اليقين الزائف، ثم يجعل كل حقيقةٍ تقترب
منه عدواً ينبغي صدّه.

وكان الملاء الذين يخاطبهم النبي ﷺ يملكون في مكة مالا وجاهاً ونفوذاً، لكن خسارتهم الكبرى لم تكن فيما امتلكوه، بل فيما امتلكهم. لم يكن المال في أيديهم فحسب، بل صار مقياساً يقرؤون به حقائق الوجود؛ فحسبوا أنّ التفوق الاجتماعي قرينةً على التفوق عند الله، وأنّ الضعفاء الذين سبقوا إلى الإيمان دليلٌ على ضعف الرسالة، وأنّ الحق لو كان عظيماً لتصدّر مجلسه العظماء في عرفهم.

وهذا منطق الجاهلية في كل زمان: أن تُقاس الفكرة بأسماء أتباعها، وأن تُعرف قيمة الحقيقة من طبقة من يعتقها، وأن يُنظر إلى الشهرة كما لو كانت برهاناً، وإلى النفوذ كما لو كان نوراً يكشف الصواب. لكنّ الحق لا يتحول إلى باطلٍ لأنّ الفقراء سبقوا إليه، ولا يصير الباطل حقاً لأنّ أصحاب المناير حملوه؛ فالسما لا تستفي الأرض في قيمة ما أنزلت.

﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّقِينَ﴾: حين يذهب الاهتمام إلى المعرض

التصدّي هو الإقبال والتعرض للشيء بالعبادة، وكأنّ النبي ﷺ كان يضع نفسه في طريق أولئك المستغنين، حريصاً أن يسمعوا، متلطفاً في دعوتهم، آملاً أن تنفتح في قلوبهم نافذةٌ للهدى. وهذا الحرص في أصله رحمةٌ ونبل؛ فقد كان ﷺ يحمل من همّ الناس ما يجعله يكاد يهلك نفسه حزناً على إعراضهم: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

لكنّ الرحمة إذا لم يحكمها الوحي قد تتحول إلى استنزافٍ في غير موضعه، وقد تنفق الطاقة كلها على الأبواب المغلقة، بينما تظلّ الأبواب المفتوحة تنتظر من يعبر إليها. وليس كل إصرارٍ على شخصٍ بعينه حكمة، ولا كل انسحابٍ منه بأس؛ فقد يكون من فقه الدعوة أن

يعرف صاحبها متى يكرر، ومتى يمضي، ومتى يترك للزمن أن يعمل في قلبٍ لم يحن أو أن استجابته.

إنَّ التصدّي للمستغني يحمل خطراً خفياً: أن يشعر المستغني بأنَّ الحقيقة محتاجةٌ إليه، وأنَّ أصحابها يطاردونه لأنَّهم لا يملكون بدونه قوة. وحين يرى الناس الداعية يبالغ في استرضاء صاحب النفوذ، قد يتسرّب إلى وعيهم أن للغني عند الله وزناً آخر، وأن أبواب الهداية تفتح له بصورةٍ أوسع، وأن الضعيف لا يُلتفت إليه إلا إذا بقي من الوقت شيء. عندئذٍ لا يختلّ ترتيب المجلس وحده، بل يختلّ تصور المجتمع كله لمعنى الكرامة.

والدعوة التي تخفض صوتها أمام ذي السلطان، ثم ترفعه على الضعيف، لا تحمل ميزان الوحي وإن حفظت ألفاظه. والعالم الذي يلين في الحق لمن يرجو عطاءه، ثم يشتدّ على من لا يخشى سطوته، قد جعل المكانة الدنيوية وسيطاً بينه وبين ضميره. أما السورة فتريد للكلمة أن تبقى عزيزةً في ذاتها؛ تُقال بالرحمة للجميع، لكن من غير استجداء، وتُعرض بحكمة، لكن من غير أن يُنتزع منها كبرياء الحق.

بين الحرص على الهداية والتعلّق بالنتيجة

ليس العتاب إذن على الدعوة، بل على ترتيب العناية. وليس المقصود أن يُترك المستغني بلا بلاغ، بل ألا يُقدّم إعراضه على إقبال طالب التزكية. فهناك فرقٌ بين أن تدعو الإنسان رحمةً به، وأن تتعلّق باستجابته حتى تمنحه من نفسك ووقتكَ ما يحرم منه من هو أصدق طلباً وأقرب انتفاعاً.

الحامل الصادق للرسالة يريد الخير للناس، لكنه قد يقع في أسر النتيجة؛ يتمنى نجاحاً يراه سريعاً، فيتصور أن دخول صاحب نفوذٍ إلى الصف سيختصر المسافة ويمنح الدعوة قوة.

وهنا يتدخل الوحي ليحرر النية من الحساب البشري الذي يربط النصر بالأسماء الكبيرة، فربّ ضعيف لا يملك شيئاً في موازين الأرض، يجعله الله باباً خبيراً واسعاً، وربّ عظيم في أعين الناس لا يضيف إلى الحق شيئاً، بل يزيده التعلق به اضطراباً.

إنّ الرسالة لا تنتصر حين يقتنع بها الأقوياء فحسب، بل تنتصر أولاً حين لا تسمح لمقاييسهم أن تغيّر روحها. وقد يكون أول انتصارٍ للداعية أن يتحرر من حاجته إلى إعجاب من يدعوهم، وأن يعرف أن كرامته ليست فيما يقوله الناس عنه، بل في صدقه مع ما يحمله. ومن هنا يصبح البلاغ عبوديةً لله، لا مفاوضةً مع الجمهور على شروط القبول.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّيَّ﴾: حدود المسؤولية

تأتي هذه الآية لتضع حداً فاصلاً بين ما يجب على صاحب الرسالة وما ليس إليه: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّيَّ﴾. عليك البلاغ، وليس عليك أن تفتح القلب بالقوة؛ عليك البيان، وليس عليك أن تنتزع من الإنسان إرادته؛ عليك أن تزرع، وليس عليك أن تأمر الجذور بالنمو. إنّ الهداية لا تقع حين تتراكم الكلمات وحدها، بل حين يأذن الله لقلب صادق أن يلتقي بالنور. وما أشقّ أن يتعلم المصلح حدود مسؤوليته؛ لأنّ صدق محبته قد يدفعه إلى تحميل نفسه ما لا تطيق. يشعر أن إعراض الناس فشل شخصي، وأن عليه أن يجد العبارة التي تهزم كل عناد، وأن كل قلب لم يتغير شاهدٌ على نقص فيه. لكنّ الآية تحميه من عبودية النتيجة: لست مسؤولاً عن اختيار الآخرين بعد أن تبذل لهم الحق صافياً، ولا عن باب أغلقه صاحبه من الداخل، ولا عن بذرة أُلقيت في أرضٍ رفضت أن تحتضنها.

هذا لا يبرر الكسل ولا يعني من إحسان الوسيلة؛ فقد يسيء الإنسان العرض ثم يعلق فشله على مشيئة الهداية. وإنما المقصود أن يستنفد وسعه في البيان والرفق والحكمة، ثم يسلم

النتيجة لله. فالتقصير شيء، والعجز عن امتلاك القلوب شيء آخر. الأول مسؤولية، والثاني حدٌّ من حدود البشرية.

إِنَّ قَوْلَ اللَّهِ: ﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾ يرفع عن صدر الداعية حملاً هائلاً. فأنت لست رباً للناس، ولا رقيباً على أسرارهم، ولا مهندساً لإراداتهم. وقد بعث الله نوحاً عليه السلام فلبث في قومه ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً، ولم يكن عدد المستجيبين مقياساً لصدق نبوته. فالقيمة ليست في كثرة الثمار الظاهرة وحدها، بل في استقامة العبد على أمر الله وهو يزرع.

ومن هنا يتطهر العمل من القلق المرضي على الأرقام. فكم من مشروع يظن نفسه ناجحاً لكثرة المتابعين، وهو لا يغيّر قلباً واحداً؛ وكم من معلّم مجهول صنع في غرفةٍ صغيرة إنساناً صالحاً امتدّ خيره بعد موته. ما تراه الإحصاءات ليس كل الحقيقة، وما لا يدخل في الجداول قد يكون عند الله أثقل من مدنيٍّ كاملةٍ من الضجيج.

المزكي الحقيقي

في قوله: ﴿أَلَا يَزَكِّي﴾ تلميحٌ إلى أن التزكية فعلٌ يتصل باختيار الإنسان وتوفيق ربه، فلا يستطيع الداعية أن يزكي أحداً من عند نفسه. إنه يدلّ على الماء، لكنه لا يخلق العطش؛ ويشير إلى الطريق، لكنه لا يزرع قدماً في قلب المتردد. وقد قال الله لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

ومعرفة هذه الحقيقة تحفظ صاحب الرسالة من نوعين من الفساد: اليأس حين لا يرى ثمرة، والعجب حين يراها. فإن أعرض الناس، لم ينهزم؛ لأنه أدّى ما عليه، وإن اهتمدوا، لم ينسب الفضل إلى بلاغته وعبقريته؛ لأنه يعلم أنّ يده لم تصل إلى الموضع الذي وقع فيه التحول. لقد نطق بالكلمة، أما الله فهو الذي شقّ لها طريقاً بين طبقات القلب.

كم يُفسد العجب الأعمال حين يتوهم المرئي أنه صنع الأرواح التي ربّاهَا، أو يظن الكاتب أن كلماته وحدها أنقذت القارئ، أو يرى العالم أن طلابه من آثار قدرته. إنّ الإنسان سببٌ مكرّم، لكنه يظلّ سبباً؛ قد يجري الله الخير على يديه، ولو شاء لأجراه على يد غيره. ومن أدرك ذلك ازدادت عنايته بعمله، وقلّ تعلّقه بنفسه.

﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾: بلاغة الحركة نحو النور

في مقابل المستغني، يظهر الرجل الآخر لا بوصفه ساكناً ينتظر، بل إنساناً يملأ المشهد حركة: ﴿جَاءَكَ يَسْعَى﴾. لقد جمع المجيء والسعي، فكأنّ طريقه إلى المجلس لم يكن انتقالاً بالجسد وحده، بل اندفاعاً من أعماق الروح. والسعي أبلغ من المشي؛ لأنه حركةٌ يسكنها القصد، وجهدٌ تدفعه الرغبة، واتجاهٌ تعرف فيه القدم لماذا تتحرك.

كان فاقد البصر، ولذلك كان سعيه أشقّ من سعي غيره؛ فكل خطوةٍ عنده تحتاج إلى انتباه، وكل طريقٍ قد يخبيّ عثرة، ومع ذلك لم يجعل عجزه حجةً للغياب. لم يقل: لو أراد الله لي العلم لمنحني بصرًا يصل بي إليه، بل تحرك بما بقي معه، وجعل من حاجته طاقةً تقوده. وهكذا يعلمنا أن الصادق لا ينتظر زوال العوائق كلها حتى يبدأ، إنه يبدأ من داخل العائق نفسه، ويصنع من ضعفه طريقاً إلى القوة.

لم تأت الذكري وهو مستلقٍ في بيته، بل جاءها يسعي. فالمعرفة التي تغيّر الإنسان لا تُنال دائماً بالراحة، والهدى لا يدخل قلباً لم يفتح له صاحبه طريقاً. لا بد من سعيٍ يسبق الفتح: سؤال، وقراءة، وصبر، ومجاهدةٍ لعادات النفس، واعترافٍ بأنّ الحياة لا تصبح أصفى بمجرد التني.

وكم من إنسان يشكو ظلمة قلبه، لكنه لا يقترب من مصباح؛ يشكو جهله، ولا يفتح كتاباً؛ يشكو قسوته، ولا يدخل موضعاً تلين فيه الأرواح. يريد ثمرة السعي من غير أن يسعى، ومنتظر أن تُحمل إليه التحولات كما تُحمل الأشياء إلى المستهلك. أمّا القرآن فيربط بلوغ المعنى بحركة صادقة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

وليس كل سعي ظاهر دليلاً على الصدق؛ فقد يسعى الإنسان طلباً للذكر، أو منافسةً للناس، أو رغبةً في صورةٍ جديدةٍ لنفسه. لذلك كشفت الآية التالية الباعث المستتر وراء حركة ابن أم مكتوم: ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾.

﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾: القلب الذي حرّك القدمين

كانت الخشية هي السرّ الذي يسكن السعي. لم يكن جاء ليجادل، ولا ليختبر فصاحة النبي ﷺ، ولا ليضيف إلى معارفه معلومةً يتباهى بها، بل جاء لأنّ قلبه أحسّ بجلال الحقيقة وبحاجته إلى النجاة. والخشية ليست خوفاً أجوف يطرد الإنسان بعيداً، بل معرفةً بجلال الله تجذبه إليه؛ إنها رهبةٌ ممزوجةٌ بالرجاء، تجعل القلب يرتعش من التقصير، ثم يتحرك نحو باب الرحمة.

فالخوف قد يشلّ القدم، أما الخشية فحرّكت قدم الأعْمى. الخوف المجرد يقول لصاحبه: اهرب؛ والخشية المؤمنة تقول: عد. الخوف يرى العقوبة وحدها، والخشية ترى معها عظمة من عَصِي ورحمته وحقه في المحبة والطاعة. ولذلك كانت الخشية من ثمار المعرفة: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾؛ فكما اتسعت معرفة العبد بربه، عرف ضآلة نفسه وشدة افتقاره، فانخفض فيه صوت الغرور.

ولم تقل الآية إنه يُظهر الخشية، بل ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾؛ فهي حالٌ باطنةٌ لا يطلع على حقيقتها إلا الله. هنا يبلغ تصحيح الميزان ذروته: الناس يرون أعمى فقيراً يقطع حديثاً مهماً، والله يرى قلباً يخشى. وما أوسع المسافة بين ما تلتقطه العين وما يعلمه الله! نحن نتعامل مع المظهر، لكنه سبحانه يعلم الرجفة التي سبقت السؤال، والدمعة التي لم تنزل، والصراع الذي خاضه الإنسان حتى جاء.

وربما كان في مجلسٍ واحدٍ من يتقن مظهر السكون والوقار، وقلبه أبعد ما يكون عن الخشية، وآخر مرتبكٌ لا يحسن التعبير، لكن قلبه منكسرٌ لله. ولأننا لا نملك الدخول إلى السرائر، أمرنا بالعدل والرحمة، وبألا نجعل البلاغة الاجتماعية أو حسن المظهر دليلاً قاطعاً على منزلة الأرواح.

الحركة الظاهرة والحركة الباطنة

جمع القرآن للرجل حركتين: حركة الجسد في ﴿يَسْعَى﴾، وحركة القلب في ﴿يَخْشَى﴾. فلا يكفي أن تتحرك القدم إن بقي القلب جامداً، ولا يكفي أن يدّعي القلب صدقاً لا يشهد له سعي. الإيمان الحق يلتقي فيه الداخل بالخارج؛ خشيةٌ تدفع إلى الطريق، وطريقٌ يحفظ الخشية من أن تبقى عاطفةً عابرة.

وفي ذلك تصحيحٌ لفهمٍ شائعٍ يجعل صلاح القلب دعوى تغني عن العمل، أو يجعل كثرة العمل دليلاً يغني عن فحص النية. فالآية لا تفصل بينهما: قلبٌ يخشى، وإنسانٌ يسعي. من ادّعى الخشية ثم أقام على الكسل، فليبحث في حقيقة دعواه؛ ومن ملأ الطريق حركةً ولم يعرف قلبه الانكسار، فليحذر أن يكون سعيه دوراناً حول نفسه.

إنَّ الخشية من غير سعيٍ قد تتحول إلى أُمْنِيَّة، والسعي من غير خشيةٍ قد يصير استعراضاً. أما حين يجتمعان، يصبح العمل عبادة، وتصبح المعرفة تزكية، ويخرج الإنسان من وهم الإنجاز الشخصي إلى معنى السير إلى الله.

﴿فَإِنَّ عَنْهُ تَلَهَّى﴾: الغفلة التي قد ترتدي ثوب العمل

تقابل الآية بين ﴿تَصَدَّقْ﴾ و﴿تَلَهَّى﴾: إقبالٌ زائدٌ هناك، وانشغالٌ هنا. والمفارقة المؤلمة أن الانشغال عن ابن أم مكتوم لم يكن بلهوٍ محرَّم، بل كان بعملٍ دعويٍّ جليل. وهذا يكشف نوعاً بالغ الدقة من الخلل: قد ينشغل الإنسان بالخير عن الخير الأوجب، وبالعَمَلِ الصالح عن الأولوية الأشدَّ صلاحاً، وبالمشروع الكبير عن القلب القريب الذي جعله الله أمانةً في لحظته.

ليس كل انشغالٍ عذراً، فربَّ عملٍ جليلٍ يصير حجاباً إذا وقع في غير مرتبته. وقد يغرق الأب في طلب الرزق لأسرته حتى تضيق الأسرة التي كان يطلب الرزق من أجلها، وينشغل الكاتب بخدمة الإنسان في كتبه عن إنسانٍ يتألم عند بابه، ويتوسع المصلح في قضايا الأمة حتى يهمل مظلمةً واضحةً يستطيع رفعها. الأعمال لا تُقاس بعناوينها فقط، بل بمواضعها وأوقاتها وما تزيحه من حقوق.

وكم من إنسانٍ يلوذ بالمهمات الكبرى لأنه لا يريد مواجهة واجباته القريبة. الحديث عن إنقاذ العالم أكثر لمعاناً من الإصغاء إلى قلبٍ وحيد، والدفاع عن الفقراء في الخطب أيسر من احتمال فقيرٍ يلج في طلبه، والدعوة إلى الرحمة أيسر من أن نضبط ملاحظنا لحظة المقاطعة. وهنا تمتحن السورة صدقنا: هل نحب القيم، أم نحب الصورة التي تمنحنا إياها حين نتحدث عنها؟

والتلهي لا يعني بالضرورة قصد الإهمال؛ فقد يحدث لأنّ الذهن امتلاً بأولويةٍ أخرى، لكن حقوق الناس لا تسقط دائماً بحسن النية. قد نوّذي من غير قصد، ويظلّ الأذى محتاجاً إلى إصلاح. وقد نتجاوز قلباً لأننا كنا مشغولين بالخير، ويبقى واجباً علينا أن نعود إليه ونردّ اعتباره. صفاء المقصد لا يعفيانا من مراجعة الأثر.

حضور الإنسان أم نفعه؟

تفضح الآيات مرضاً اجتماعياً قديماً متجدداً: أن يُستقبل الإنسان بحسب النفع المتوقع منه. المستغني صاحب الجاه يُصدّي له لأنّ إسلامه قد يفتح أبواباً، أما الأعمى فلا يُتوقع منه في الحساب العاجل أثرٌ مماثل. وهنا يأتي الوحي ليحرر الكرامة الإنسانية من منطق الاستثمار: الإنسان ليس مشروع منفعة، ولا ترتفع قيمته بمقدار ما يستطيع أن يقدمه لنا.

حين يتحول المجتمع إلى سوقٍ للنافع، يصبح الضعفاء فائضاً بشرياً: كبار السن الذين قلّ إحتاجهم، والمرضى الذين يستهلكون الرعاية، والفقراء الذين لا يملكون ردّ الجميل، وأصحاب الإعاقة الذين لا تلتفت الأنظمة إلى قدراتهم. لكنّ القرآن يعلن من مجلسه الأول أن القيمة لا تُبنى على القدرة الاقتصادية أو الاجتماعية، بل على حقيقة العبودية واستعداد القلب للخير.

وهذا لا يلغي تقدير الكفاءة، ولا يسوّي بين الناس في المسؤوليات التي تحتاج إلى قدراتٍ مختلفة؛ لكنه يمنع أن تتحول تفاوتات الوظيفة إلى تفاوتٍ في أصل الكرامة. قد يختلف الناس في الأدوار، لكنهم لا يفقدون حقهم في الاحترام. وقد يعجز إنسانٌ عن عملٍ معين، لكنه يظلّ صاحب روح لا يجوز أن تُحتزل في عجزه.

أخلاق المجالس

تعلّنا هذه الآيات أن للمجالس عدالةً كما للمحاكم عدالة. قد لا تكون فيها قوانين مكتوبة، لكن توزيع النظر والوقت والإصغاء يكشف سَلَمَ القيم المختبئ في نفوسنا. من الذي نرحب به بجماعة؟ ومن الذي نختصر حديثه؟ ولمن نفسح المكان؟ ومن الذي يشعر وهو جالسٌ بيننا أنّ وجوده زائد؟

المجلس الصالح ليس الذي يجتمع فيه الكبار فقط، بل الذي لا يُشعر فيه الصغير بصغره. والعالم الحق ليس من يهر خواصّ السامعين وحدهم، بل من يستطيع أن يخفي بمعرفته حتى تصل إلى قلب البسيط من غير أن يهينه. والكلمة النبيلة ليست التي تحلقّ عالياً حتى يعجز عنها الناس، بل التي تحتفظ بعمقها وهي تفتح أبوابها لكل من جاء يسعى.

وقد يجلس في آخر المجلس إنسانٌ لا يلتفت إليه أحد، بينما تكون حاجته إلى كلمةٍ واحدةٍ أعظم من حاجة المتصدرين إلى حديثٍ كامل. وقد يخرج هذا المغمور بما يسمع فيحيا، بينما يخرج المشهور كما دخل. إنّنا لا نعرف أين تقع الثمرة، ولذلك يجب ألا نحتكر النور لمن يملكون مواقع متقدمة في الصفوف.

منطق الأرقام ومنطق البركة

في الحساب البشري، قد يبدو الاهتمام بصاحب نفوذٍ أكثر جدوى؛ لأنّ وراءه أتباعاً ومكانةً وتأثيراً. لكنّ القرآن يرينا على أنّ البركة لا تُقاس بالعدد المتوقع، وأنّ الله قد يفتح بصدق فردٍ ما لا يفتحه بضجيج جماعة. فالأرقام تصف الكمّ، لكنها لا تقيس النور؛ تحصي الحضور، لكنها لا تدخل إلى القلوب.

كم من فكرة عظيمة بدأت بإنسانٍ واحدٍ لم يكن يملك إلا صدقه، وكم من حشدٍ كبيرٍ انفضّ ولم يترك خلفه إلا الصور. إنّ الله لا يسأل المصلح عن عدد من تجمعوا حوله بقدر ما

يسأله عن أمانته فيما بلّغ، وعدله بين من أقبلوا، وإخلاصه فيمن لا تصنع صحبتهم له مجدّاً ظاهراً.

ليس المطلوب احتقار الأعداد أو إهمال أثرها الواقعي، بل عدم تحويلها إلى معبودٍ يحدّد لنا من يستحقّ العناية. قد تكون الكثرة نعمةً إذا حملت الحق، وقد تكون فتنةً إذا صار صاحب الرسالة يغيّر نبرته وموازنه كي يحافظ عليها. والبركة أعمق من الانتشار؛ فقد يصل الكلام إلى الآفاق ولا يدخل روحاً، وقد يبقى في قلبٍ واحدٍ ثم يصعد عند الله عملاً لا ينقطع.

ليست الدعوة اصطليداً للكبار

حين ينسى العمل الدعوي هذه الآيات، قد يتحول إلى بحثٍ دائمٍ عن الوجوه المؤثرة: لاعِبٍ مشهور، أو ثريٍّ معروف، أو صاحب سلطة، وكأنّ الحقيقة لا تكتمل حتى يعلن هؤلاء انتماءهم إليها. وقد يُحتفى بكلمةٍ عابرةٍ من مشهور أكثر مما يُحتفى بعمرٍ كاملٍ من الثبات لرجلٍ مجهول. وهنا يعود ميزان الجاهلية في ثوبٍ ديني: تمنح الشهرة صاحبها سلطةً حتى على تقدير الإيمان.

أما السورة فلا تقول إن المشهور لا يدعى، بل تقول إنّ المغمور لا يهمل. ولا تمنع الفرح بهداية صاحب المكانة، بل تمنع أن يصبح رجاء هدايته سبباً في تأخير من جاء يطلبها. فالحق ليس نادياً يزداد شرفاً بانضمام الأسماء الالامعة، بل رحمةٌ تشرف كل من دخلها.

إنّ أخطر ما يصيب الرسالة أن تنظر إلى الناس بالعين التي جاءت لتصححها. فإذا صارت هي نفسها مأخوذةً بمقاييس القوة والمال والجاه، فقد تحمل ألفاظ القرآن بينما تفكر بمنطق خصومه. ومن هنا كان مطلع عبس تطهيراً مبكراً لطريق الدعوة من عبادة الرموز البشرية.

النفس بين استغناء وخشية

وليس المستغني دائماً شخصاً آخر بعيداً عنا، كما أنّ الساعي الخاشي ليس صورةً نمدحها من الخارج؛ فداخل كل إنسان قابليةٌ للنموذجين. قد يدخل المرء مجلساً مستغنياً حين يظن أنه لا يحتاج إلى مراجعة، ثم يدخل مجلساً آخر ساعياً خاشياً حين تمسّه حاجته. وقد يكون فقيراً أمام مرضه، مستغنياً أمام نصيحة أخيه؛ متواضعاً في عبادته، متكبراً في فكره؛ يطلب من الله الهداية، ثم يغلق الباب في وجه كل من يخالف صورته عن نفسه.

لذلك ينبغي أن تُقرأ الآيات سؤالاً داخلياً: في أيّ موضع أعيش الاستغناء؟ ما الحقيقة التي أرفض سماعها لأنّها تهدد الصورة التي صنعتها لنفسني؟ ومن الشخص الذي أتصدى له لأنه ينفعني، ومن الذي أتلهى عنه لأنه لا يضيف إلى مكاني شيئاً؟

وقد يكون أقصى الاستغناء أن يستغني المتدينّ بتدينّه؛ فيرى نفسه قد وصل، فلا يراجع نيته، ولا يسمح لآيةٍ أن تهزّ استقراره الزائف. يقرأ القرآن ليؤكد ما يعرف، لا ليكتشف ما غاب عنه، ويسمع الموعظة فيرسلها بقلبه إلى غيره، كأنّ كل خطابٍ نزل لإصلاح الآخرين. عندئذٍ يصبح العلم نفسه حجاباً، وتتحوّل العبادة من طريق افتقارٍ إلى مادةٍ للاستعلاء.

أما السعي المصحوب بالخشية، فهو أن يدخل الإنسان على القرآن وهو قابلٌ لأن يتغير، وأن يترك أمام النص مساحةً لهدم بعض أفكاره، وأن يقبل أن يخرج من التلاوة بغير الصورة التي دخل بها. فالقارئ الذي لا يسمح للآية أن تعاتبه لم يقرأها حقاً، ومن جعل نفسه دائماً فوق المحاسبة صار أقرب إلى المستغني وإن أكثر من الحديث عن الخشوع.

انقلاب الموازين

تضع الآيات النموذجين في مقابلةٍ محكمة:

هناك مستغنيٌ ساكنٌ في غروره، وهنا ساعٍ متحركٌ نحو ربه.

هناك قلب لا يظهر حاجةً، وهنا قلبٌ تسكنه الخشية.

هناك من يُتصدى له رغم إعراضه، وهنا من يُتلهى عنه رغم إقباله.

هناك حساباتٌ ترى ما يملكه الإنسان، وهنا وحيٌ يرى ما يطلبه قلبه.

والمطلوب أن ينقلب الميزان: لا أن يُهان المستغني، بل أن يُبلَّغ من غير استجداء؛ ولا أن يُقدَّس الضعيف لضعفه، بل أن يُكرم لسعيه وخشيته؛ ولا أن تُلغى الفروق الواقعية بين الناس، بل ألاَّ تتحول إلى طبقاتٍ في استحقاق الرحمة والهداية.

إنَّ القرآن لا يبني مجتمعاً يعكس الهرم القديم فحسب، فيضع الفقير مكان الغني والغني مكان الفقير، بل يهدم أصل المعيار القائم على الثروة والمظهر، ويقيم بدلاً منه معياراً روحياً أخلاقياً: الصدق، والسعي، والخشية، والاستعداد للتزكية. فليس المقصود أن يُقدَّم إنسانٌ لمجرد فقره، وإنما أن يُرى بما يحمل لا بما يفتقد.

حين تصبح الخشية أعظم من الجاه

كان في وسع المجتمع المكي أن يرى ابن أم مكتوم رجلاً محدود الأثر، لكن السماء رأت خشيته، والخشية وزنٌ لا تلتقطه الأسواق ولا تحصىه دفاتر النفوذ. وربما لم يكن مجلس مكة كله يعلم ما يتحرك في قلبه، غير أن الله علم، فأُنزل من أجله آياتٌ جعلت سعيه مقياساً لكل ساعٍ بعده.

وهذا يمنح المغموين عزاءً لا ينفد: قد لا يرى الناس جهادك الداخلي، ولا يعرفون كم قاومت لتصل، ولا كم مرةً نهضت من انكسارك، لكن الله يرى السعي والخشية. وما دام

الله يرى، فلا يضرب أن تخطئك أضواء الأرض. ليست قيمتك في عدد العيون التي تتجه إليك، بل في حقيقة قلبك حين يتجه إلى الله.

ويمنح أصحاب المكانة إنذاراً عادلاً: لا تجعلوا تصدّي الناس لكم يقنعكم بأنكم الأعلى قيمة؛ فقد يتصدّى الناس للنصب لا للشخص، وللمال لا للحكمة، ولما يرجونه منكم لا لما يجدونه فيكم. وإذا أردتم معرفة أقداركم، فلا تنظروا إلى ازدحام الأبواب، بل إلى حال القلوب حين تخلو ربها، وإلى مقدار ما فيها من افتقارٍ وصدق.

لقد جاء الأعمى يسعى، فصار سعيه بصيرةً للأمة؛ واستغنى المبصرون، فصار استغناؤهم عمى يُتلى خبره. وهكذا تقلب السورة الحواس إلى معانيها الكبرى: ليس المبصر من امتلك العين، بل من أبصر حاجته إلى الله؛ وليس الأعمى من فقد الضوء، بل من أحاطه النور ثم ظن أنه مستغن عنه.

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ: كَرَامَةُ الْوَحْيِ وَاسْتِغْنَاءُ الْحَقِّ عَنِ الْخَلْقِ

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿

تَأْتِي﴾ ﴿كَلَّا﴾ هنا كضربة توقف ميزان النفس قبل أن يستقر على خطئه، وكحاجز رباني يمنع الموقف العابر من أن يتحول إلى منهج دائم: ليس الأمر كما قد يوحي به حساب اللحظة؛ ليست الدعوة محتاجة إلى إيمان المستغنين حتى تكتسب قيمتها، وليس القرآن كلاماً يقف ذليلاً على أبواب المتكبرين، وليس حامل الرسالة مطالباً بأن يطارد المعارضين حتى يهدر حقّ المقبلين. إنّ هذه الكلمة الواحدة تقطع خيوط الوهم التي قد تربط مصير الحق بقبول ذي جاه، وتعيد الوحي إلى مقامه الذي لا يرتفع بإقبال أحدٍ ولا يخفض بإعراضه.

﴿كَلَّا﴾ ليست ردعاً للموقف وحده، بل ردعٌ لكل عقل يتخيل أن سلطان الحقيقة مستمدٌ من جمهورها، وأن عظمة القرآن تقاس بعدد من يُعجبون به، وأن الرسالة تحتاج إلى توقيع أصحاب القوة كي تصبح جديرةً بالانتشار. لقد كان القرآن عظيماً قبل أن يؤمن به أحدٌ من البشر، وسيظل عظيماً لو أدير عنه أهل الأرض جميعاً؛ لأنّ قيمته من مصدره، لا من المتلقين، ونوره من الحق الذي يحمله، لا من العيون التي قد تراه أو تعمى عنه.

إنّ الشمس لا تتوسل إلى الأعمى أن يعترف بضوئها، ولا يتوقف البحر عن الامتداد لأنّ عابراً أنكر سعته، ولا يصبح الجبل أقلّ رسوخاً لأنّ طفلاً لم يدرك ارتفاعه. وكذلك الوحي؛

لا تضيف إليه طاعة المطيع كالألأ، ولا تنزع عنه معصية العاصي جلالاً. المنتفع أو الخاسر هو الإنسان، أما كلام الله فمكرم في ذاته، مرفوع في مصدره، مطهر في حقيقته.

حين يتحرر صاحب الرسالة من ذل الاسترضاء

كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان أولئك القوم، لا طلباً لمجدٍ شخصي، وإنما رجاءً لنصرة الدين وتخفيفاً للأذى عن المؤمنين؛ لكنّ الوحي أراد أن يحجر حتى هذا الحرص النبيل من التعلق بقبول الأشخاص. فالداعية إذا توهم أن مشروع الحق لن ينجح إلا برضا فلان، أصبح أسيراً له من حيث لا يشعر، وقد يلين في موضع الحق، أو يؤخر من لا يملك نفوذاً، أو يغير ترتيب الأولويات كي يحتفظ باهتمام ذلك الكبير.

وهكذا يمكن أن يتحول الحرص على الدعوة إلى ثغرة يدخل منها ميزان الدنيا إلى القلب. لا يبدأ الأمر ببيع الحقيقة صراحةً، بل يبدأ بتنازلٍ صغيرٍ في طريقة تقديمها، أو بصمتٍ عن جانبٍ قد يزج صاحب النفوذ، أو بتجميلٍ زائدٍ يطمس حداً من حدودها. ثم لا يزال حامل الرسالة يقترب من ذائقة المدعو ويبتعد عن أمانة البلاغ، حتى تصبح الدعوة التي أراد نصرتها نسخةً مستأنسةً لا توقظ ضميراً ولا تهدم باطلاً.

ولذلك جاءت ﴿كَلَّا﴾ لتعيد الحرية إلى الطرفين: حرية الرسول من عبودية النتائج، وحرية المدعو في أن يختار بعد البيان. لا إكراه في الإيمان، ولا استجداء له؛ فالحق يُعرض بوضوح ورحمة، ثم يُترك الإنسان أمام مسؤوليته. وما أجمل الدعوة حين تكون يدًا مفتوحةً لا قيداً، وضيئاً حاضراً لا سلعةً تفاوض الناس على قبولها.

﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾: الوحي الذي يعيد الإنسان إلى نفسه

جاء الضمير مؤنثاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ عائداً إلى الآيات أو الموعظة أو السورة وما تحمله من ذكر الله؛ والمعنى أن هذا الخطاب ليس ترفاً فكرياً، ولا مادةً للنخبة تتفاخر بتأويلها، ولا نصّاً تاريخياً يودع في خزائن التراث، بل تذكرة: شيء يأتي إلى الإنسان ليوقظ فيه ما نسيه، ويردّه إلى الحقيقة التي غطّتها الشهوات والعادات وضحيج الحياة.

التذكرة لا تمنح الإنسان فطرةً جديدةً، بل تزيح عن فطرته غبار الغفلة. إنها لا تستورد إلى القلب حقيقةً غريبةً عنه، وإنما تنادي معرفةً قديمةً مودعةً في أعماقه: أنك عبد، وأن لك رباً، وأن وجودك لم يبدأ بإرادتك، وأن النعم ليست نتاج قوتك وحدها، وأن الطريق مهما طال سينتهي إلى لقاءٍ لا مفر منه.

ولأنّ الإنسان ينسى، لم تكن حاجته إلى التذكرة طارئةً، بل هي حاجةٌ متجددةٌ ما دام حياً. ليست المشكلة أن يسمع الحق مرةً فيفهمه، ثم ينتهي الأمر؛ فبين المعرفة والثبات عليها مسافةٌ تملؤها الغفلة، وبين القرار الأول والوفاء به معركةٌ تخوضها النفس كل يوم. قد يعرف الإنسان قصر الدنيا، ثم يتصرف كأنه خالد؛ ويعرف أن الله يراه، ثم يقع في المعصية كأنّ عين الرقابة غابت؛ ويعرف أن الرزق بيد الله، ثم يذلّ قلبه لباب مخلوق. المعرفة باقية، لكن حضورها خفت، فتأتي التذكرة لتردّها من هامش الوعي إلى مركز الإرادة.

ومن هنا كان القرآن تذكرةً لا تنفذ وظيفتها بكثرة التلاوة. قد تقرأ الآية نفسها عشرات السنين، ثم تفتح لك في لحظةٍ باباً لم تره، لا لأنّ كلماتها تغيّرت، بل لأنّك أنت وصلت إلى موضعٍ جديدٍ من الحياة، فأصبح في قلبك سؤالٌ لم يكن موجوداً من قبل. الوحي ثابت، لكن الإنسان يتغير، وكل تغييرٍ فيه يخلق حاجةً جديدةً إلى أن يسمع الكلام القديم بقلبٍ جديد.

ليست التذكرة بحاجة إلى المتكبر

حين وصف الله القرآن بأنه تذكرة، فصل قيمته عن تجاوب المستغنين معه؛ فوظيفته أن يذكر، لا أن يتزّن ليُجذب من لا يريد التذكّر. إنّ من أقبل عليه وجد فيه ما يحيي قلبه، ومن أعرض لم يضرّ إلا نفسه. ليست المشكلة في قصور النور، بل في الجفن الذي أصرّ أن يُطبق.

وما أبعد الفرق بين عرض الحقيقة وتسوّل قبولها. عرض الحقيقة احترامٌ لعقل الإنسان وإرادته؛ أما تسوّل القبول فيوحي بأنّ الحق ناقصٌ ينتظر شهادة المدعو. ومن حق الناس أن يُدعوا بالحكمة واللين، وأن تُزال عن طريقهم الشبهات والحواجز، لكن ليس من حق أحدٍ أن يطالب الحقيقة بالتنازل عن ذاتها حتى توافق هواه.

إنّ القرآن لا يعرض نفسه كما تعرض الأسواق بضائعها، فتعدّل خصائصها بحسب رغبات المستهلكين؛ لأنه لم ينزل ليوافق الإنسان في كل ما يريد، بل ليصحح ما يريد. لم يأت ليضع تاجاً فوق رغباتنا القديمة، بل ليعيد تكوين الرغبة نفسها، يعلمها ماذا تحب، وممّ تخاف، وإلى أين تتجه. ولذلك فإن الخطاب الذي لا يزعج في الإنسان باطلاً، ولا يوقظ فيه سؤالاً، ولا يدعوه إلى مجاهدةٍ أو مراجعة، قد يكون كلاماً مريحاً، لكنه لم يحمل بعدُ قوة التذكرة.

﴿فَنَ شَاءَ ذِكْرَهُ﴾: كرامة الاختيار وثقل المسؤولية

بعد أن أعلن القرآن أنّه تذكرة قال: ﴿فَنَ شَاءَ ذِكْرَهُ﴾. والتعبير يفتح للإنسان باب الإرادة، لكنه لا يرفع عنه تبعه اختياره. الطريق ظاهر، والتذكرة حاضرة، فن شاء أن يفتح لها قلبه تذكّر وانتفع، ومن شاء أن يولي ظهره حمل وزر الإعراض. إنّ الله لا يحتاج

إلى إيمان عباده حتى يسوقهم إليه مكرهين، ولكنه أقام لهم الحجة، ومنحهم القدرة على الاستجابة، ثم جعل لاختيارهم وزناً في مصيرهم.

ليست المشيئة البشرية مستقلةً عن مشيئة الله، فكل قدرة للعبد مخلوقةً لله، وكل حركة تقع في ملكه وتحت علمه وتقديره، غير أن الله شاء أن يكون للإنسان اختياراً حقيقياً يُحاسب عليه، فلا يكون إيمانه حركةً آليّةً لا فضل له فيها، ولا كفره قسراً لا مسؤولية عليه بسببه. وبذلك يجتمع في الطريق افتقار العبد إلى توفيق الله، ومسؤوليته عن الوجهة التي أخذها.

في قوله ﴿فَنَ شَاءَ﴾ تكريمٌ للإنسان؛ لأنه مخاطبٌ قادرٌ على القرار، لا حجرٌ يدفع من مكانٍ إلى آخر. لكنه تكريمٌ ثَقِيلٌ، إذ الحرية ليست فسحةً بلا حساب، بل قدرةٌ تصنع بها نفسك ثم تلقى نتيجة ما صنعت. قد يختار المرء أن ينسى، ولكن اختياره لا يغيّر الحقيقة التي نسيها؛ وقد يشيح عن الطريق، لكن إعراضه لا يحو النهاية.

إنك حرٌّ في أن تغلق عينيك، لكنك لا تملك أن تطفى الشمس؛ وحرٌّ في أن ترفض الدواء، لكنك لا تملك أن تجعل المرض شفاءً؛ وحرٌّ في أن تعرض عن التذكرة، لكنك لا تملك أن تلغي اليوم الذي ستقف فيه أمام ما تذكرك به. وهذه هي جلاله المسؤولية: أن تُمنح قرارك، ولا تُمنح القدرة على تغيير قوانين الحق لتناسب قرارك.

المشيئة التي تحتاج إلى يقظة

قد يقرأ الإنسان ﴿فَنَ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ فيظن أن المشيئة حركةٌ سهلة: أريد فأتغير، أقرر فأهتدي. لكن النفس أكثر تعقيداً من ذلك؛ فالإرادة قد تُستعبد للعادات، وقد تضعف أمام الشهوة، وقد تنام طويلاً تحت ركام التسويف. ولهذا تحتاج مشيئة التذكّر نفسها إلى مجاهدة؛ يحتاج الإنسان أن يحمي قدرته على الاختيار من الأشياء التي تختار عنه.

حين يذم المرء لذة ما، لا يعود قراره حراً كما يتوهم، وحين يستسلم لضجيج المجتمع، قد يظن أنه اختار، بينما هو يكرر ما اختاره له الآخرون؛ وحين يعيش عمراً تحت سطوة الخوف من الناس، تصبح مشيئتهم مختبئة داخل مشيئته. تأتي التذكرة لترد إليه حريته الأصيلة، فتفك أسر الإرادة من الهوى والضغط والاعتیاد، وتعيدها إلى عبودية الله التي تحررها من كل عبوديةٍ سواه.

ومن أعمق المفارقات أن الاستجابة لله، التي يظنها بعض الناس قيداً، هي التي تنقذ الإنسان من قيود لا يحصيها. فالذي لا يعبد الله لا يعيش بلا عبادة؛ بل تنوزع عبوديته بين المال، والصورة، والقبول الاجتماعي، والشهوة، والخوف، والذات. أما حين يتذكر ربه، نتوحد قبلته، ويصبح قادراً على أن يقول لكل ما يستعبده: لست إلهي.

﴿ذِكْرُهُ﴾: من سماع القرآن إلى حضوره

لم يقل: فمن شاء قرأه، أو سمعه، بل قال: ﴿ذِكْرُهُ﴾؛ لأن التلاوة وسيلة، أما الغاية فهي أن يحضر معنى الوحي في القلب حتى يعيد توجيه الحياة. قد يمر القرآن باللسان ولا يبلغ مركز القرار، وقد يُحفظ في الصدر ولا يُستدعى عند الفتنة، وقد يُرفع على الرفوف بينما تتخدر الموازين التي جاء ليقيمها.

إن ذكر القرآن ليس ترديد ألفاظه وحدها، على جلالة ذلك وثوابه، بل أن تذكره حين تغضب فيضبط غضبك، وحين تطمع فيكشف لك حقيقة الطمع، وحين تضعف فيردك إلى ربك، وحين تقف بين قوَيٍّ وضعيفٍ فيعيد ترتيب نظرتك. الذكرى الحقيقية هي أن تصير الآية حاضرة في اللحظة التي يحتاج إليها سلوكك، لا أن تبقى محفوظة في ذاكرة منفصلة عن الحياة.

وكم من إنسانٍ يعرف آيات العدل، ثم ينساها عند خصومته؛ ويحفظ آيات التوكل، ثم يغيب معناها حين تضيق أسباب الرزق؛ ويردد آيات الموت، ثم يبيني حياته كما لو كان مستثنىً من الفناء. إنّ النسيان القرآني ليس أن تسقط الألفاظ من الذاكرة فحسب، بل أن تسقط دلالاتها من الفعل. وقد يبقى اللفظ حاضراً ويكون المعنى منسياً.

﴿في صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ﴾: الكلمة التي سبقت المجالس

بعد الحديث عن التذكرة تنتقل السورة فجأةً من مجلسٍ أرضيٍّ محدود إلى أفقٍ علويٍّ مهيب: ﴿في صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ﴾. كان المشهد قبل قليلٍ يدور بين رجلٍ أعمى ووجوهٍ من قریش، فإذا بالآيات ترفع الأبصار إلى موطن الكلمة في الملاء الأعلى. وكأنها تقول: قبل أن تتساءلوا من الذي أصغى إلى القرآن في مكة، انظروا إلى المقام الذي جاء منه؛ وقبل أن تزنوه بمجلس البشر، اعرفوا كيف يُصان في عالم الملائكة.

﴿مُكْرَمَةٍ﴾؛ لم تل كرامتها من الزخرفة المادية، بل من شرف ما تحمله ومن إضافتها إلى كلام الله. فالوعاء يُكْرَم بالمدح فيه، والصحيفة ترتفع بالمعنى الذي استقرّ عليها. وإذا كان موطن الآيات مكرّماً، فكيف يذلّ حاملها معناها لرضا إنسان؟ وكيف تُقدّم وهي نَجلةٌ من أحكامها، معتذرةٌ عن حقائقها، كأَنَّ الوحي متهمٌ ينتظر من العصر أن يبرئه؟

إنّ معرفة أصل الرسالة تمنح حاملها عزّةً لا غلظة فيها، وتواضعاً لا ذل فيه. هو عزيزٌ بالكلمة، لا بنفسه؛ متواضعٌ لأنّه لم يصنعها، ولم يبتكر نورها، وإنما اختير لحملها بقدر أمانته. فلا يتكبر بها على الناس، ولا يخضع بها لأهوائهم؛ يقدمها كما جاءت، بقلب عبدٍ يعرف أن شرفه كله مستمدٌّ منها.

كرامة الصحف وكرامة الإنسان

حين يصف الله الصحف بأنها مكرّمة، فهو يعلم الأمة أن علاقتها بالوحي ليست علاقة استخدام عابر، بل علاقة توقير. غير أن توقير القرآن لا يقتصر على وضعه في موضع مرتفع أو تحميل صفحاته، بل يبدأ بتوقير معناه؛ فقد يصون الإنسان المصحف من الغبار، ثم يترك قلبه يغطي أحكامه بغبار الهوى، وقد يقبل صفحاته، ثم يهجر عدله حين يتعارض مع مصلحته.

ليس احترام الوحي طقساً شكلياً، وإن كانت للمصحف حرمة وآدابه، وإنما احترامه الأكبر أن نمنحه حق التصحيح، وأن نقبل سلطانه حين يحكم على رغباتنا، وأن نستمع إلى عتابه كما استمع النبي ﷺ إلى مطلع هذه السورة. فمن أراد قرأناً يبارك اختياراته كلها، ولا يرهّ، فقد أراد مرآة لنفسه لا وحيّاً من ربه.

وما أجمل الصلة بين تكريم الصحف وتكريم الأعمى في مطلع السورة؛ فالذي يكرم كلام الله حقاً يتعلم منه كيف يكرم عباده. لا يمكن أن يكون الإنسان شديد التعظيم للمصحف، ثم يحتقر الفقير الذي جاء يطلب هدايته. فالآيات المكرّمة لا تنتج نفوساً مهينةً للخلق، وإنما تنقل إليها من كرامتها بقدر ما تعيها.

﴿مَرْفُوعَةٌ﴾: علو المصدر وسمو المقصد

ثم وصف الصحف بأنها ﴿مَرْفُوعَةٌ﴾؛ عالية القدر والمنزلة، منزهةً عن أن تنحدر إلى سفاسف الأهواء. والرفع هنا لا يمنحنا صورة المكان وحده، بل يفتح معنى السمو كله: مصدرٌ علوي، ومقصدٌ يرفع الإنسان من حمأة الغريزة إلى أفق العبودية، ومن ضيق الذات إلى رحابة الحق.

القرآن مرفوع، لكنه نزل إلى الإنسان؛ وهذه هي الرحمة: أن يأتي العالي إلى المنخفض لا ليقمه في انخفاضه، بل ليرفعه إليه. لم ينزل الوحي كي يبرر للإنسان كل ما هو فيه، بل كي

ينتسله مما صار إليه. وإذا كانت الآيات مرفوعةً، فمن الطبيعي أن تطلب من قارئها صعوداً: أن يترك شيئاً من هواه، وأن يتجاوز شيئاً من أنانيته، وأن يرقى من ردّ الفعل إلى البصيرة، ومن المصلحة القريبة إلى المصير البعيد.

ومن أراد أن يأخذ القرآن من غير أن يصعد، سيحاول خفضه إلى مستوى رغباته؛ يفسره بما يريح نفسه، ويختار منه ما يوافق مزاجه، ويعزل ما يطالبه بالتغيير. لكنّ الوحي المرفوع لا يخفّض ليصبح تابعاً للإنسان؛ على الإنسان أن يرتفع كي يصير أهلاً لفهمه.

ليست رفعة القرآن انفصلاً عن واقع الأرض؛ فقد نزل لمعالجة وجهِ عبس، وسائلٍ قوطع، ومجلسٍ اختلّ ترتيبه. لكنه يعالج التفاصيل الأرضية من أفقٍ سماوي، فيمنح الحركة الصغيرة وزنها ضمن بناء الإنسان الكبير. وهنا سرّ ربانية المنهج: لا يحتقر الجزئي، ولا يغرق فيه؛ يربطه بأعلى المقاصد، حتى تصبح طريقة استقبال فقيرٍ جزءاً من الوفاء للوحي المرفوع.

﴿مُطَهَّرَةٌ﴾: نقاء المصدر وطهارة الطريق

ثم قال سبحانه: ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾، أي منزّهةً عن كل باطلٍ ودنسٍ وتحريف، لا تمسّ حقيقتها شبهةٌ من نقص البشر ولا اضطراب أهوائهم. إنّها كلمةٌ جاءت من علمٍ لا يجهل، وحكمةٍ لا تختل، ورحمةٍ لا يشوبها عجز، وعدلٍ لا يتسلل إليه ميل.

والفارق بين الوحي والفكر البشري أن الإنسان يفكر من داخل حدوده: تحاصره بيئته، وتاريخه، ومصالحه، ومخاوفه، وما يعرف وما يجهل. قد يبلغ من الحكمة مبلغاً عظيماً، لكنه يظلّ قابلاً للمراجعة؛ لأنّ عينه لا تحيط بكل الزوايا. أما الوحي فنّ العليم الخبير، ولذلك كان مطهراً من القصور الذي يلازم المعرفة الإنسانية.

لكنّ طهارة المصدر تستدعي طهارة الحامل والطريق. لا يليق بكلمةٍ مطهرةٍ أن تُحمل بنيةٍ ملوثةٍ بحب الظهور، أو تُستخدم سلماً إلى سلطان، أو تُقَطَّع لتبرير ظلم، أو تُؤَظَف في خصومة النفس. قد تكون الآية طاهرةً في ذاتها، ثم يحملها قلبٌ لم يتطهر، فيجعلها سهماً في غير موضعها.

وهذه من أعظم الفتن: أن يستخدم الإنسان نور الوحي ليزين عتمته، وأن يستعير جلال النص لينح هواه قداسة. ولذلك يحتاج قارئ القرآن إلى أن يسأل نفسه دائماً: هل أريد أن يهديني النص، أم أريده أن ينتصر لي؟ هل أقرأ لأعرف مراد الله، أم أبحث عن عبارةٍ أدعم بها ما قررته من قبل؟

إنّ الصحف مطهرة، لكن القلوب التي تستقبلها تحتاج إلى تطهيرٍ مستمر؛ فالماء الصافي يتغير لونه بلون الإناء. وكلما تحرر القلب من الكبر والحسد والتعصب، صار أقدر على تلقي الهداية كما هي، لا كما يريد أن تكون.

من طهارة النص إلى طهارة القارئ

لا تكفي طهارة اليد التي تمسك المصحف إذا لم يتطهر القلب من احتقار الناس. وقد جاءت الآيات بعد عتاب العبوس لتقيم علاقةً مباشرةً بين الوحي والأخلاق؛ فمن حمل التذكرة المكرمة المرفوعة المطهرة، ينبغي أن يظهر أثرها في نظره إلى الأعمى والفقير والمستضعف.

طهارة العقيدة ينبغي أن تُنجب طهارة السلوك، وإلا بقيت المعاني محبوسةً في الذهن. وما قيمة أن ينزه المرء الوحي عن التحريف، ثم يحرف ميزانه في التعامل مع الناس؟ وما قيمة

أن يتحدث عن سمو القرآن، ثم يخدر في خصومته إلى الإهانة والافتراء؟ إن النص الطاهر يريد قارئاً يتطهر به، لا حارساً على ألفاظه وهو بعيدٌ عن روحه.

والتطهر بالقرآن ليس ادعاء العصمة، بل دوام الرجوع. فقد عوتب خير الخلق ﷺ في حركةٍ دقيقة، فتلقّى التصحيح وارتفع به. أما القلب المريض فيظن أن الاعتراف بالخطأ ينقصه، فيستमित في الدفاع عن نفسه، ولو كان الثمن إهدار الحقيقة. وهنا يفترق من يتطهر بالوحي عن استخدام الوحي ستاراً: الأول يسمح للنص أن يحاكمه، والثاني لا يقرأ فيه إلا ما يحاكم به الآخرون.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾: حملة النور بين السماء والأرض

ثم تظهر الملائكة في المشهد: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾. والسفرة هم الملائكة الذين جعلهم الله وسائط في نقل وحيه وكتبه، سمو بذلك لأنهم يسفرون بين الله ورسله، أو لأنهم يكشفون الوحي ويظهرونه. إنهم حملة أمانة لا يزيدون فيها ولا ينقصون، ولا تلوثها في عبورها رغبةً ولا غرض.

كان المجلس الأرضي يضم بشراً تتفاوت مراتبهم في عرف المجتمع، لكن الآيات تأخذنا إلى مجلسٍ آخر، حيث الملائكة يحملون الصحف في طاعةٍ كاملة. إنها مقارنة صامتة بين استغناء البشر وبراءة الملائكة؛ أولئك يتناقلون أمام التذكرة، وهؤلاء يتشرفون بمحملها. وفي اللحظة التي يظن فيها مستكبر أنه يمنح القرآن فضلاً بإصغائه، تكون ملائكة السماء قائمة على خدمته، عارفةً قدره.

وتعبير ﴿بِأَيْدِي﴾ يوحي بالعناية والحفظ والمباشرة؛ فالوحي لم يلقَ في الوجود مهملاً، بل حُفَّ بالحفظ في مصدره وطريقه وبلاغه. وما وصل إلى الأرض لم يصل مصادفةً، وإنما عبر

سلسلةً من الأمانة: كلامٌ من الله، تحمله ملائكةٌ كرام، وينزل به الروح الأمين على قلب النبي الأمين ﷺ.

وحين يدرك المؤمن هذه الرحلة المهيبة، لا يعود تعامله مع القرآن تعاملًا عابرًا. الصفحة التي يقلبها في هدوء تحمل أثر طريق بين السماء والأرض، والآية التي ربما يمرّ بها سريعاً قامت على حملها ملائكةٌ كرام، وحفظها نبيٌّ واجه الأذى كي تبلغنا. فكم يبدو المهجر قاسياً حين نرى مقدار العناية التي أوصلت إلينا المهجور!

الإنسان بين السفارة عن الحق والنيابة عن النفس

كل من حمل شيئاً من الوحي إلى الناس له نصيبٌ من معنى السفارة، لا بمعنى مقام الملائكة ولا عصمتهم، بل بمعنى الأمانة في التبليغ. فالعالم سفيرٌ عن المعنى الذي يعلّيه، والمرئي سفيرٌ عن القيم التي يغرسها، والكاظم سفيرٌ عن الحقيقة التي يصوغها. والسفير لا يملك الرسالة حتى يغيّرها لمصلحته، ولا يحق له أن يجعل نفسه أكبر منها.

ومن أخطر ما يصيب حامل المعرفة أن تتحول السفارة عنده إلى زعامة؛ يبدأ خادماً للمعنى ثم يريد من المعنى أن يخدم صورته. يفرح بأن يُعرف الحق على يديه، ثم ينتقل خفيةً إلى الرغبة في أن يُعرف هو ولو غاب الحق. وقد يغضب لانصراف الناس عنه أكثر مما يغضب لانصرافهم عن الله، ويحسب دفاعه عن مكانته دفاعاً عن الرسالة.

أما السفارة الحقيقية فغابوا خلف أمانتهم؛ عرّفهم القرآن بصفاتهم لا بأسماءٍ يتنافس الناس في تعظيمها. إنهم ينقلون ولا يخونون، ويؤدون ولا يستأثرون. وكلما اقترب حامل الرسالة من هذا المعنى، قلّ ظهوره في عينه، وعظم ما يحمله في قلبه.

﴿كَرَامٌ بَرَّةٌ﴾: أخلاق من يحمل الكلام الكريم

ختمت الآيات وصف الملائكة بقول الله: ﴿كَرَامٌ بَرَّةٌ﴾. فهم كرامٌ في ذواتهم ومقامهم وأخلاقهم، بررةٌ في طاعتهم وصدقهم وكثرة خيرهم. ولم يكن من المصادفة أن يجتمع شرف الرسالة وشرف الحملة؛ فالصحف مكرمة، والذين يحملونها كرام. وكأنّ القرآن يعلننا أن الكلمة الكريمة تحتاج إلى أخلاقٍ كريمةٍ تحملها، وأنّ برّ الرسالة ينبغي أن يظهر في برّ صاحبها.

قد يدعو الإنسان إلى الحق بلغةٍ تحتقر المخاطب، أو يدافع عن الفضيلة بفظاظةٍ تجرحها، أو يحمل آيات الرحمة في قلبٍ قاسٍ؛ فتقوم بين الرسالة وحاملها خصوصمةٌ صامتة. وما أكثر ما يُصدّ الناس عن الكلام الجميل بأخلاقٍ من يقدمه! ليس لأنّ الحق فقد جماله، بل لأنّ المرأة المتسخة حجت بعض ضوئه.

ومن هنا لا يكفي أن يكون المبلّغ صحيح المعلومة؛ بل ينبغي أن يكون كريم المعاملة، باراً بالخلق، أميناً على ضعفهم وأسئلتهم وتدرّجهم. إنّ صاحب الدعوة لا يحمل كلماتٍ فحسب، بل يحمل صورةً عمليةً عنها؛ فإن دعا إلى الرحمة ولم يرحم، وإلى العدل ولم يعدل، وإلى التواضع واستعلى، فقد جعل سلوكه حجةً كاذبةً على ما يقول.

والكرم هنا أوسع من بذل المال؛ إنه سعة النفس، واحتمال الناس، وحسن استقبال القادم، ومنح السائل حقه من الإصغاء. ولو حضر معنى ﴿كَرَامٌ بَرَّةٌ﴾ في قلب كل معلّم وداعية، لما شعر طالب علمٍ بأنه ثقیل، ولما عومل السائل كأنه يمتحن مكانة المسؤول، ولما تحولت المجالس إلى طبقاتٍ تحجز القرب بحسب الشهرة والجاه.

الكرامة التي تنزل من السماء إلى الأرض

في الآيات حركةٌ صاعدةٌ ونازلةٌ في آنٍ واحد: التذكرة في صحفٍ مكرمةٍ مرفوعة، يحملها سفرةٌ كرام، ثم تنزل إلى الأرض كي ترفع الإنسان وتطهره. فكرامة الوحي ليست عزلةً في

الأعلى، بل رحمةٌ تمتد إلى أدنى مواضع الضعف البشري. ومن أصدق دلائل رفعة القرآن أنه انحنى بالناية إلى أعمى جاء يسعى، ولم يترك حقه يضيع تحت هيبة مجلس الكبراء.

إنّ العلوّ الإلهي لا يعني إهمال التفاصيل، بل يمنحها ميزانها الصحيح؛ فالله الذي كرم الصحف في الملأ الأعلى هو الذي رأى عبوسةً خفيةً في مجلسٍ أرضي، وسمع حاجة رجلٍ لا يراه الناس مهمًّا، وأنزل من أجله عتاباً. أيّ دينٍ هذا الذي يصل بين قداسة الصحف وكرامة الضعيف، ويجعل وفاءنا للوحي ظاهراً في طريقة استقبالنا لمن لا يملك شيئاً؟

ومن هنا ندرك أنّ تعظيم القرآن لا يكتمل بحسن الخط والزخرفة وجمال التلاوة، مع جلالته ذلك كله، بل يبلغ صدقه حين ينتقل إلى العلاقات: حين تُفتح الأبواب لمن جاء يسعى، ويُمنح الضعيف حقه، ويُبَلِّغ المستغني من غير تذلل، وتبقى كرامة الحقيقة والإنسان مصونتين معاً.

القرآن لا ينتظر شهادة العصر

في كل زمانٍ يظهر من يظنّ أنّ الوحي يحتاج إلى أن تُثبت له الحداثة صلاحيته، أو تمنحه الفلسفات البشرية شهادة البقاء. وقد يقدّم بعض المدافعين القرآن في هيئة متهم، يجمعون له ما استطاعوا من كلمات البشر ليبرهنوا أنه يستحق الاحترام. ولا حرج في إظهار وجوه حكمته، ومحاورة الأفكار، وكشف اتساقه مع الحقائق الصحيحة؛ لكن الخلل أن ينقلب ميزان اليقين، فيصبح كلام البشر أصلاً والوحي فرعاً ينتظر التصديق.

إنّه في ﴿صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ قبل أن تنشأ جامعات البشر، وقبل أن تشكل نظرياتهم، وقبل أن يفتح العصر عينيه. نستفيد من المعرفة الإنسانية، ونحاورها وننقدها،

لكننا لا نجعل تقلباتها قاضياً نهائياً على كلام العليم. فكم من يقينٍ بشريٍّ ساد قرناً ثم انهار، وكم من فكرةٍ سُخرَ من خالفها ثم أصبحت هي موضع السخرية.

ليس معنى ذلك إغلاق العقل، بل تحريره من عبادة اللحظة التاريخية. فالقرآن نفسه يدعو إلى النظر والتفكير، لكنه يريد عقلاً يعرف حدوده، ولا يخلط بين السؤال الصادق والاستعلاء المتنكر في هيئة بحث. العقل مصباحٌ عظيم، لكنه لا يصير شمساً تحيط بكل شيء..

من مشهد العتاب إلى مشهد التكريم

تأمل كيف انتقلت السورة في آياتٍ قليلة من ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ إلى ﴿صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾، ومن الأعمى الذي لم يلتفت إليه كما ينبغي إلى الملائكة الكرام البررة. كأنها تربط طرفي المشهد بخيطٍ واحد: لأنّ الوحي مكرم، يجب أن يكون الإنسان المقبل عليه مكرماً؛ ولأنّ حملته في السماء كرام، ينبغي أن يتخلق حملته في الأرض بالكرم؛ ولأنّ الصحف مطهرة، فلا يليق بطريقها أن يتلوث باحتقار فقيرٍ أو استرضاء متكبر.

هكذا يصبح العتاب نفسه دفاعاً عن قداسة الرسالة؛ لأنّ الوحي الذي يعلن كرامة الإنسان لا يسمح لحامله، وإن كان خير البشر ﷺ، أن يمرّ على حقّ الضعيف من غير تصحيح. وتلك ليست إدانةً للنبوة، بل برهان كمال تربيتها: فالنبي لا يصنع الوحي على مقاس رغباته، وإنما يصنع الوحي شخصيته على أكل مقامٍ من العبودية.

التذكرة بين يدي القارئ

بعد هذا الوصف العلوي، يعود السؤال إلى القارئ: ماذا صنعت أنت بالتذكرة التي وصلت إليك؟ لقد كانت في صحفٍ مكرمة، وحملتها ملائكةٌ كرام، وتلقاها نبيٌّ أمين، وبذل الصحابة

أرواحهم في حفظ طريقها، ثم صارت بين يديك سهلة الوصول. فهل زادك قربها تذكراً، أم جعلتك الألفة أقل دهشة؟

إنّ النعم العظيمة قد يحجبها دوام الحضور، فما كان الأولون يقطعون الفيافي لسماع آيةٍ منه، صار قريباً من اليد إلى حدّ أن يؤجّل كل يوم. ليست المشكلة في بُعد القرآن عن حياتنا، بل ربما في شدة قرب المادي مع غياب حضوره الروحي. نملكه في البيوت والهواتف، لكن السؤال: هل يملك حقّ توجيهنا؟

قد يكون القرآن على بعد لمسةٍ من إصبعك، وبينك وبين أثره عمرٌ من المحجب. وقد يكون المصحف بعيداً عن يد إنسان، لكن آيةً واحدةً تسكن قلبه فتقوده في كل طريق. العبرة ليست في امتلاك النسخة، بل في أن تتحول التذكرة إلى ذاكرةٍ أخلاقيةٍ حية، تستيقظ عند القرار، وتضيء ساعة الفتنة، وتردّ الإنسان إلى الله كلما سحبت الحياة بعيداً.

لقد قالت السورة: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾؛ فلم يبقَ بينك وبين التذكرة إلا صدق المشيئة. أمّا هي فقد جاءت مكرمةً مرفوعةً مطهرة، لا ينقصها نورٌ ولا بيان. السؤال كلّ انتقل إلى قلبك: هل تفتح الباب، أم تظل مستغنياً حتى تعبر بك الأيام إلى اللحظة التي لا تنفع فيها ذكرى جاءت بعد فوات الاختيار؟

إنّ القرآن لا يقف فقيراً عند بابنا، نحن الفقراء الواقفون عند بابه؛ ولا يحتاج إلى أن نرفعه، بل نحن الذين نرتفع به؛ ولا يطلب منا أن نمنحه الكرامة، بل يمنحنا من كرامته بقدر ما نذكر. فن أقبل عليه لم يصنع فضلاً للوحي، وإنما أنقذ نفسه من النسيان؛ ومن أعرض عنه لم يطفئ نور السماء، بل اختار أن يمشي في الأرض وحيداً داخل عتمته.

الفصل الرابع

مَا أَكْفَرَهُ: الْإِنْسَانُ بَيْنَ ضَالَّةِ الْبَدَايَةِ وَغُرُورِ الطَّرِيقِ

﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾

بعد أن رفعت السورة أبصارنا إلى الصحف المكرمة والسفرة الكرام البررة، أعادتنا فجأة إلى الإنسان؛ لا إلى الإنسان كما يرسم صورته لنفسه، بل كما تكشفه الحقيقة حين تُزَع عنه ألقابه وأوهامه: مخلوقٌ صغير البداية، محاطٌ بالتقدير في كل أطواره، عاجزٌ عن أن يمنح نفسه وجوداً أو يؤخر عنها موتاً، ثم هو - مع هذا الافتقار كله - يجحد ويستغني ويعرض.

إنها نقلةٌ شديدة الإيقاظ: من عالم الملائكة الذين يحملون الوحي في طاعةٍ كاملة، إلى الإنسان الذي يُجمل إليه الوحي فيستكبر؛ من صحفٍ مرفوعةٍ مطهرة إلى نفسٍ خرجت من نطفةٍ ثم نسيت أصلها؛ من سفرةٍ كرامٍ بررة لا يعصون الله ما أمرهم إلى بشرٍ أحاطتهم النعم من كل جانب، ثم لم يقضوا ما أمروا به.

كأنَّ السورة تقيم مقارنةً خفيةً بين مخلوقاتٍ عرفت مقامها فازدادت به كرامة، ومخلوقٍ نسي مقامه فاختلق لنفسه عظمةً زائفة. فالملائكة عظماء لأنهم بررة، والإنسان يظنَّ العظمة في الاستغناء. أولئك ارتفعوا بالطاعة، وهو يسقط بالجحود؛ أولئك يحملون التذكرة، وهو يفرّ منها كأنها تطلب منه ما ليس له، مع أنها جاءت لترده إلى حقيقته وتنقذه من ضياعه.

﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ﴾: صَبِيحَةٌ فِي وَجْهِ الْغُرُورِ

يفتح هذا المقطع بقوله تعالى: ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾، وهي عبارة تهزّ النفس من موضعها؛ دعاءً عليه وإظهاراً لاستحقاقه الهلاك بسبب تماديه في الكفر والجحود، وتعجبٌ من شدة كفره مع كثرة ما يحيط به من دلائل الخلق والعناية. وما أقسى أن يُذكر الإنسان هنا باسم جنسه المكرّم في مواضع أخرى، ثم يُواجه بهذه الصيحة؛ لأنه أهان إنسانيته حين قطعها عن ربها.

ليس المقصود أنّ كل فردٍ من البشر داخلٌ في هذا الذم على السواء؛ فالقرآن يكرّم الإنسان المؤمن الشاكر، ويثني على من عرف ربه وقضى أمره. وإنما الخطاب للإنسان حين يستسلم للنموذج الكافر الجاحد، أو وصفٌ للجنس من جهة ما يتكرر فيه من نسيانٍ وطغيان. فالإنسان يحمل قابلية الارتفاع حتى يجاوز بإيمانه كثيراً من مراتب الخلق، ويحمل قابلية السقوط حتى يهبط حين يهدر عقله وفطرته.

ولفظ ﴿قَتَلَ﴾ لا يترك مساحةً لمجاملة الكبر؛ فكأنّ القرآن يريد أن يقتل الوهم الذي يحيا به الإنسان قبل أن يقتله الوهم نفسه. إنّ بعض العبارات لا تصلح معها الهمسات؛ لأنّ النفس إذا انتفخت احتاجت إلى كلمةٍ حادةٍ تثقب جدارها، وإذا طال نومها لم توقظها لمسةٌ رخوة. هذه الصيحة ليست قسوةً منفصلةً عن الرحمة، بل قد تكون أقصى صور الرحمة: أن يهزّك الخطاب قبل أن تلقى الحقيقة التي لا رجوع بعدها.

الرحمة ليست دائماً أن يُقال للإنسان ما يريحه؛ قد تكون أن يسمع ما ينقذه من نفسه. والطبيب الرحيم لا يجمل للمريض حقيقة الداء إذا كان الجهل به سيقته. وكذلك القرآن: يمسح على القلب حين يحتاج إلى السكينة، ويضرب على أبواب وعيه حين يصبح النوم هلاكاً.

الإنسان حين يستحق أن تُهدم صورته عن نفسه

ما الذي أوصل الإنسان إلى أن يواجه بهذه الصيحة؟ إنه التناقض الهائل بين حقيقته ودعواه؛ بين ما هو عليه من افتقار، وما يتصرف به من استغناء؛ بين النعم التي تغمره، والكفر الذي يقابلها؛ بين أصله الضعيف، وصوته المتعالي. ليست المشكلة أنه ضعيف، فالضعف جزءٌ من خلقه، وإنما المشكلة أن ينسى ضعفه فيبني على النسيان أخلاقاً من الجحود والطغيان.

والإنسان حين ينسى أصله لا يصبح قوياً، بل يصبح جاهلاً بقوته الحقيقية. قوته ليست في ادعاء الاستقلال، بل في اتصاله بمن خلقه؛ ليست في أن يتصرف كأنه لا يحتاج، بل في أن يعرف إلى من يرفع حاجته. فالفرع لا يثبت بإنكار جذره، والنهر لا يزداد جرياناً بقطع صلته بالمنبع.

كل غرورٍ يقوم على نسيان. يتكبر الجليل لأنه نسي أن ملامحه لم تكن اختياره، ويتعالى الذكي لأنه نسي أن عقله عطية، ويطنى الثري لأنه ينظر إلى ما في خزائنه وينسى الأبواب التي فتحت له والظروف التي لم يصنعها. ولو ردّ الإنسان كل ميزةٍ إلى مصدرها لتحول إعجابه بنفسه إلى شكر، وتحولت نعمته من سورٍ يعزله عن الناس إلى جسرٍ يخدمهم به.

﴿مَا أَكْفَرُهُ﴾: دهشةٌ من هذا الجحود

يحتمل التعبير معنى التعجب من شدة كفر الإنسان: ما أشدّ كفره وما أعظم جحوده! وهو كفرٌ يثير العجب لا لأنّ دلائل الحق قليلة، بل لأنها تحاصره من داخله وخارجه. فوجوده نفسه حجة، وجسده حجة، وطعامه حجة، والموت الذي يمرّ بالناس حجة، والأرض التي تنبت

بعد موتها حجة؛ ومع ذلك يستطيع أن يعيش وسط الآيات كأنها أشياء صامتة لا تقول شيئاً.

وقد قيل في معنى الآية أيضاً: أي شيء حمله على الكفر وجراه عليه؟ وهو سؤال يكشف فراغ العلة؛ فما العذر الذي يملك أن يقف أمام هذا الفيض من الخلق والتقدير والتيسير؟ أي قوة صنعها الإنسان لنفسه حتى يستغني؟ وأي نعمة أوجدها من العدم حتى ينسب الفضل كله إلى ذاته؟

إنّ الجحود ليس غياب الأدلة دائماً؛ قد يكون قراراً نفسياً بالأمر ما يطالب الإنسان بالتواضع. فبعض الحقائق لا تُرفض لأنها غامضة، بل لأنها ثقيلة على الأنا. الاعتراف بالخالق يعني الاعتراف بالعبودية، والاعتراف بالنعمة يعني واجب الشكر، والإيمان بالبعث يعني أن الحياة ليست ميداناً مفتوحاً بلا حساب. ولهذا قد يهرب الإنسان من الدليل لا لضعفه، بل لقوة التبعة التي يحملها.

وما أكثر صور الكفران التي تتسلل إلى حياة المؤمن من غير أن تخرجه من الإيمان؛ حين يألف النعمة حتى لا يراها، وينسب نجاحه إلى نفسه وحدها، ولا يتذكر الله إلا إذا اختلت الأسباب، ويظلّ ساخطاً على ما فاته غافلاً عما أُعطي. إنّ الجحود درجات، وأول علاجه أن يتعلم الإنسان النظر إلى حياته باعتبارها سلسلة عطاءٍ لا قائمة استحقاقات.

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾: السؤال الذي يردّ الإنسان إلى حجمه

تسأل الآية: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾. وليس السؤال طلباً لمعلومة مجهولة، بل هو استدعاء للإنسان كي يعود بذكركه إلى أول السطر، قبل أن تملأه الألقاب والأموال والصور. من

أي شيء خلقت أيها المستغني؟ ماذا كنت قبل أن يصبح لك اسمٌ ومكانٌ وخصومٌ وأتباع؟
إن كانت قوتك يوم لم تكن تملك أن تختار شكلَ خليةٍ واحدةٍ في جسدك؟

إنَّ السؤال يجرد الإنسان من الزوائد التي صنعها المجتمع حوله، ثم يضعه أمام مادته الأولى.
لا فرق في البداية بين ملكٍ وفقير، ولا بين مشهورٍ ومجهول، ولا بين من سيعيش في قصرٍ
ومن سيقضي عمره في كوخ. كلهم دخلوا العالم من باب العجز نفسه، وحملوا في أطوارٍ لم
يدبروا منها شيئاً، وكان الواحد منهم محتاجاً إلى رحمٍ يحتويه، وغذاءٍ يصل إليه، وعنايةٍ لا
يعلم بها.

وإذا كانت البداية واحدة، فمن أين يأتي هذا الاستعلاء الذي يجعل إنساناً يرى نفسه جوهرًا
أعلى من إنسان؟ إنَّ اختلاف المواهب والأرزاق ابتلاءً في الوظائف، لا ترخيصٌ بتفاوت
الكرامة. وقد جعل الله بعض الناس محتاجاً إلى بعض، لكن الحاجة المتبادلة لا تعني أن
أحدهم خلق من مادةٍ أنبل من الآخر.

إنَّ من يتذكر أصله يستحي أن يحتقر أحداً؛ لأنه يعلم أن ما يرفعه في أعين الناس طارئٌ
قابلٌ للزوال، وأنه لم يكتب لنفسه نسباً ولا هيئةً ولا قدرة. أما من ينسى أصله، فيتعامل مع
العتاء كما لو كان وثيقة تفوقٍ ذاتي، فيسرق النعمة من معناها ويحيلها إلى أداة استكبار.

علم البداية يصحح أخلاق الطريق

ليست معرفة أصل الخلق درساً في الأحياء فحسب، بل تربيةٌ أخلاقية. فكل حقيقة قرآنيةٍ
عن الجسد تحمل توجيهاً للروح. حين يخبرك الله أنك خلقت من نطفة، لا يريد منك أن
تعرف المادة فقط، بل أن تعرف الحد الذي ينبغي أن تقف عنده الأنا.

ليس السؤال: ممّ تكون جسدك؟ بل: كيف تكبر وقد عرفت؟ كيف تنسى صاحب التقدير؟ كيف تحتقر من بدأ من الباب ذاته وسينتهي إلى المصير ذاته؟ إنّ العلم الذي لا يغيّر أخلاق الإنسان قد يضيف إلى ذاكرته، لكنه لم يصل بعد إلى بصيرته.

وقد يبلغ الإنسان في دراسة الجسد معرفةً دقيقةً مذهلة، ثم لا يخرج منها بخضوع؛ يرى تعقيد الخلية، وتناسق الأعضاء، ودقة الشفرة التي تحمل خصائصه، ثم ينسب كل ذلك إلى عمى المصادفة؛ لأنه قرأ الآلية ولم يسأل عن الحكمة، ودرس النظام ولم يرفع رأسه إلى المنظم. ليست كثرة المعلومات ضماناً للهداية إذا كان القلب قد قرر سلفاً ما يريد ألا يراه.

﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ﴾: عظمة الخلق من ضالة المادة

جاء الجواب: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ﴾. والنطفة ماءٌ قليلٌ مهينٌ في نظر الإنسان، لا تحمل في ظاهرها ما يوحي بهذا الكائن المعقد الذي سيخرج منها. لا وجه فيها ولا صوت، لا تاريخ ولا ذاكرة، لا عقل يجادل ولا لسان يتكلم، ومع ذلك أودع الله فيها بأمره بداية عالمٍ كامل.

من تلك القطرة خرج جسدٌ تتعاضد فيه الأجهزة، وعينٌ تميز الألوان، وأذنٌ تفكّ الأصوات، ودماعٌ يختزن التجارب، ولسانٌ يترجم الخواطر، وقلبٌ تتعاقب عليه المحبة والخوف والرجاء. من مادةٍ لا تكاد تُذكر، صنع الله كائناً يقرأ الوجود، ويصنع الحضارات، ويتساءل عن الزمن والمصير.

المعجزة ليست في ضخامة المادة، بل في سلطان القدرة التي شكّلها. فالله يخرج الكبير من الصغير، والكثير من القليل، والحياة المتدفقة من مادةٍ لا ترى العين فيها مشروع إنسان.

ومن أدرك ذلك لم يستبعد بعثاً بعد موت؛ فالذي أخرج الوعي من نقطة، قادرٌ أن يعيده من تراب، والذي أنشأ المرة الأولى لا تعجزه الإعادة.

لكنّ الإنسان ينظر إلى اكتماله الحاضر وينسى مادته الأولى، كأنّه وجد بالغاً قوياً عاقلاً. وهذه من خدع الذاكرة؛ نحن لا نتذكر مرحلة العجز في الرحم، ولا الأيام التي حملنا فيها لأننا لا نستطيع السير، فينشأ في النفس وهمٌ بأنها كانت دائماً مكتفيةً وقادرة. يأتي الوحي ليحفظ لنا ذاكرة المراحل التي لم تحفظها عقولنا، حتى لا نبني هويتنا على الجزء الذي نتذكره وحده.

بين نقطة تتواضع بها الروح ونفخة تُكرم بها

ليس التذكير بالنطفة إهانةً للإنسان، فالذي خلقه منها هو الذي كرمه ونفخ فيه من الروح التي خلقها وأضافها إليه إضافة تشريف، وأُسجد لأبيه الملائكة، ومنحه العقل والإرادة. إنما المقصود أن يعيش الإنسان بين حقيقتين: أصلٍ ماديٍّ يمنعه من الكبر، وتكريمٍ ربانيٍّ يمنعه من الابتذال.

فإذا نظر إلى النطفة وحدها ربما احتقر نفسه وأنكر بعدها الروحي، وإذا نظر إلى التكريم ونسي الافتقار ربما تألّه في داخله. أما الرؤية القرآنية فتقيم التوازن: أنت مخلوقٌ ضعيف، لكن الله كرمك؛ ولست كريماً استقلالاً عن الله، بل كرامتك من عطائه. فلا تهبط بنفسك إلى مجرد مادة، ولا ترفعها إلى مقام الربوبية.

إنّ معرفة الإنسان بأصله لا تهدم ثقته، بل تطهرها؛ تنزع منها الزهو وتبقي العزّة. فيعرف أنه ليس شيئاً بذاته، لكنه بالله قادرٌ على أن يحمل الأمانة ويعمر الأرض. وتلك هي الثقة المؤمنة: قوةٌ بلا غرور، وتواضعٌ بلا مذلة.

﴿فَقْدَرَهُ﴾: أنت ثمرة تقديرٍ لا وليد فوضى

لم تقل الآية: خلقه فتركه، بل قالت: ﴿فَقْدَرَهُ﴾. والتقدير يحمل معاني الإحكام والتسوية وتحديد الأطوار والآجال والخصائص؛ فقد قدر الله خلق الإنسان، وأعضاءه، وقواه، وأمد حياته، وما يمرّ به من أحوال، وأجرى تكوينه على نظامٍ لا تملك النطفة أن تبتكر منه شيئاً.

كل عضوٍ في موضع، وكل قدرةٍ ضمن حد، وكل مرحلةٍ تأتي في زمنها المقدّر. لا تنبت الأسنان قبل أوانها، ولا يكتمل الجنين دفعةً واحدةً، ولا يتحول الإنسان من طفولته إلى شيخوخته في يوم؛ إنّها أطوارٌ ينسجها التقدير بصبرٍ لا يضطرب.

وفي جسد الإنسان من التناسب ما لو اختلّ بعضه لصارت الحياة عتّاً. مسافةٌ محسوبةٌ بين العينين، ومفاصل تتحرك ضمن جهات، وقلبٌ يدفع الدم في شبكةٍ ممتدة، وأجهزةٌ تعمل في صمتٍ بينما ينام صاحبها ولا يدري عنها. إنه يسكن بيتاً من التقدير، ثم قد يعيش كأنّ الفوضى هي التي بنت الجدران.

ولا يعني التقدير أن البشر نسخٌ متطابقة؛ فن جمال الحكمة اختلاف المقادير والهيئات والاستعدادات. قدر لهذا قدرةً، ولهذا نقصاً، ولهذا طريقاً يختلف عن طريق غيره. وليس الاختلاف دليلاً على غياب الحكمة لمجرد أن عقولنا لم تدركها. فالرؤية الجزئية ترى الألم منفصلاً، أما العلم الإلهي فيراه داخل شبكةٍ من الآثار والمالات لا نحيط بها.

وهذا لا يمنع الإنسان من معالجة المرض، ومقاومة الظلم، وتحسين واقعه؛ فالتقدير نفسه يشمل الأسباب التي أمر أن يأخذ بها. الإيمان بالقدر ليس إغناءً للفعل، بل تطهيرٌ له من وهم السيطرة المطلقة. أنت تعمل لأنك مأمور، وتخطط لأن الله منحك عقلاً، ثم تعرف أن النتائج لا تنشأ من قدرتك وحدها.

قدره فلم يهمله

في ﴿قَدَرَهُ﴾ طمأنينة عميقة: وجودك ليس سهواً في هامش الكون، ولم تُلقَ في الحياة بلا علم. قبل أن تعرف نفسك كنت معلوماً عند الله، وقبل أن تختار طريقك جرى عليك من تقديره ما أحاط ببدايتك ونهايتك. ليس معنى ذلك أنك تعرف حكمة كل ما يجري، بل أنك تثق أنّ جهلك بالحكمة لا يساوي غيابها.

قد تضيق على الإنسان بعض مقاديره فينظر إليها كأنها أخطاءٌ كان ينبغي ألا تقع، وينسى أن رؤيته محكومةٌ بالخطئة. وكم من بابٍ أغلق فحفظه من هاربة، وكم من تأخيرٍ أنضج روحه، وكم من حرمانٍ رده إلى نفسه وربه. ولسنا مأمورين أن نسمي الألم راحة، بل أن نوقف أن الألم نفسه لا يخرج عن العلم والرحمة والحكمة، وإن خفيت علينا وجوهها.

غير أن الرضا بالقدر لا يعني الاستسلام للظلم الذي يرتكبه البشر ثم يسمونه قدراً. فالظالم مختارٌ مسؤول، والمظلوم مأمورٌ أن يدفع عنه ما استطاع، والمجتمع مأمورٌ بإقامة العدل. القدر سرُّ الله في الخلق، وليس ذريعةً للمتجبرين ولا مخدراً لضمائر المستضعفين.

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسِّرُهُ﴾: الحياة طريقٌ لا إقامة

بعد الخلق والتقدير تأتي الحركة: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسِّرُهُ﴾. قيل: يَسِّرُ له سبيلَ خروجه من بطن أمه، وقيل: بين له سبيل الخير والشر وهده النجدين، واللفظ يتسع لمعنى التيسير في أطوار وجوده وطريق تكليفه. وكأنَّ الإنسان بعد أن تكوّن بالتقدير دُفع إلى سبيلٍ يمضي فيه حتى غايته.

إنه مخلوق الطريق؛ يخرج من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، ثم يعبر مراحلها نحو ضيق القبر، ثم يخرج منه إلى ساحة البعث. وفي كل انتقالٍ تيسيرٌ من الله؛ فهو الذي أجرى السنن،

ومنح القدرة، وفتح للإنسان أبواب الحركة والاختيار، وبين له الطريق بالوحي والعقل والفطرة.

والسبيل في الآية مفردٌ معرفّ، كأنّ الحياة مهما تشعبت دروبها تظلّ رحلةً واحدةً إلى المصير. قد يظن الإنسان أن أمامه طرقاً لا نهاية لها، وأنه يستطيع أن يبتكر لنفسه نهايةً أخرى، لكنّ جميع الطرق تلتقي عند الموت، ثم تنفتح بعدها على الحساب. الاختلاف الحقيقي ليس في الوصول إلى النهاية، فالكل يصل، بل في الهيئة التي يصل بها.

لقد يَسِّر الله للإنسان سبيل الحياة، فمنحه أدوات البقاء؛ ويسّر له سبيل المعرفة، فجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً؛ ويسّر له سبيل الهداية، فأرسل الرسل وأنزل الكتب. فلا يحتجّ بأن الطريق غائبٌ بعد أن نُصبت علاماته، ولا بأن الظلمة مطلقةٌ بعد أن جاءت التذكّرة.

التيسير لا يلغي المجاهدة

قد يفهم التيسير على أنه غياب المشقة، مع أن الله قد ييسّر الطريق بأن يهبك القدرة على اجتياز مشقته، لا بأن يزيل كل حجرٍ منه. فالولادة نفسها انتقالٌ ميسّرٌ في تقدير الله، لكنها مخوفةٌ بالألم، والهداية ميسّرةٌ لمن صدق، لكنها تحتاج إلى مقاومة الهوى؛ والعلم ميسّرٌ بأسبابه، لكنه يطلب صبراً طويلاً.

التيسير ليس دائماً أن تصبح الأشياء سهلةً في الإحساس، بل أن تصبح ممكنةً في الفعل. وقد يفتح الله لك الباب ولا يحمل قدميك إليه؛ يهيئ السبب، ويمنحك الإرادة، ثم يختبر صدق سعيك. وهنا يلتقي هذا المقطع بمطلع السورة: ابن أم مكتوم يَسِّر الله له سبيل الهداية، لكنه جاء يسعياً؛ فالتيسير الإلهي لم يبلغ الحركة البشرية، بل أتاحها وباركها.

ومن رحمة الله أن جعل العبادة في أصلها موافقةً للفطرة، ثم أعان عليها بالشرع والذكر، غير أن النفس إذا أثقلت العادات السيئة بدت لها العودة شاقة. ليست المشقة دائماً دليلاً على أن الطريق غير ميسر؛ قد تكون أثر السلاسل التي صنعناها لأنفسنا، وكل خطوة في الطاعة تفك حلقةً منها.

هداية الطريق ومسؤولية الاختيار

في قوله ﴿السَّبِيلَ يَسِّرُهُ﴾ معنى يردّ على المستغني: لم تصنع طريقك وحدك، ولم تخلق الأدوات التي سرت بها، ولم تهد نفسك ابتداءً إلى ما ينفعك. وحتى اختيارك يعمل داخل نعم سابقة: عقلٌ وهبه الله، ووقتٌ منحه، وجسدٌ أقامه، وأرضٌ حملته.

لكنّ هذا التيسير لا يسلب الإنسان مسؤوليته، بل يؤكدها؛ فكل نعمة تصلح أن تكون عذراً لو غابت، تصبح حجةً حين تحضر. ما دام السبيل قد بُنِيَ، والقدرة قد مُنحت، والتذكرة قد وصلت، فإن الإعراض اختيارٌ لا فقدان طريق.

وهنا يفترق المؤمن عن الجاحد: كلاهما يمشي داخل تيسير الله، لكن المؤمن يرى النعمة فيشكر، والجاحد ينتفع بها ثم ينسبها إلى نفسه. يتنفس كلاهما من هواءٍ لم يصنعه، ويتغذى من أرضٍ لم يخلقها، ويستعملان عقلاً لم يبتكراه؛ ثم يقول أحدهما: الحمد لله، ويقول الآخر بلسان حاله: إنما أوتيته على علمٍ عندي.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ﴾: النهاية التي لا يملكها صاحبها

ثم تأتي الكلمة التي تهدم وهم الاستمرار: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ﴾. بعد أن خلقه وقدره ويسر سبيله، لم يجعل له في الدنيا خلوداً، بل حدّ للرحلة أجلاً. والموت منسوبٌ إلى الله؛ لأنه ليس انفلاتاً

عبثاً من نظام الحياة، ولا قوةً مستقلةً تتحدى الخالق، بل قدرٌ يجري بأمره: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾.

الإنسان الذي لم يختَر لحظةً مجيئه لا يختار في الأصل لحظةً ذهابه. قد يملك أن يرتب مواعيد يومه، وأن يؤجل رحلةً أو يقدم اجتماعاً، لكنه لا يملك أن يضيف إلى أجله نفساً إذا جاء أمر الله. والموت هو الحدث الذي يستردّ من الإنسان وهم السيادة على الزمن؛ يعلمه أن الساعة التي يحملها لا تعني أنه يملك الوقت، بل تعني أنه يراقب شيئاً يمرّ به ولا يستطيع إيقافه. نعيش غالباً كأنّ الموت خبرٌ يخصّ الآخرين. نودعهم إلى قبورهم ثم نعود إلى خططنا، وتستعيد الحياة ضجيجها سريعاً، كأنّ الجنازة لم تكن رسالةً تمشي أماننا. لكنّ الآية لا تقول: ثم مات، بل ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ﴾؛ لتردّ الحدث إلى فاعله، وتجعله جزءاً من التدبير الإلهي الذي بدأ بالخلق ولن ينتهي بالقبر.

ليس الموت نقضاً للحياة، بل انتقالٌ في مشروعٍ لم نَر منه إلا مرحلته الأرضية. ولو كان الموت عدماً محضاً لكان ذكره بعد التقدير والتيسير خاتمةً عبثية، لكن السورة ستقول بعد قليل: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾؛ فالقبر فاصلةٌ بين طورين، لا نقطةٌ تحو المعنى.

الموت يساوي بين الصور ولا يساوي بين المصائر

أمام الموت تسقط الفروق الظاهرة؛ يُحمل الغني كما يُحمل الفقير، ويُلفّ صاحب السلطان في كفنٍ لا جيوب له، ويترك المشهور اسمه خلفه ويدخل وحده. الجسد الذي تنافس الناس في تزيينه يُعاد إلى التراب، والوجه الذي التفتت إليه العيون يُغطّى، والصوت الذي ملأ المجالس يصمت.

لكنّ هذه المساواة في الهيئة لا تعني تساوي المصائر؛ فالقبور تتشابه في أعيننا، أما ما وراءها فمختلفٌ بقدر اختلاف القلوب والأعمال. قد يتجاوز جسدان في التراب، وبين روحيهما من البعد ما بين الطاعة والجحود. الموت يجرّد الجميع من زخارف الدنيا، لكنه لا يحو ما صنعه في أثناءها.

ومن هنا لا يدعو تذكّر الموت إلى احتقار الحياة، بل إلى إنقاذها من التفاهة. لأن الوقت محدود، يصبح للقرار وزن؛ ولأن الرحلة تنتهي، ينبغي ألا تضيع في استرضاء من لا ينفع، أو احتقار من جاء يسع، أو جمع ما سيترك. الموت لا يقول لك: لا تعمل، بل يقول: اعمل ما يستحق أن تحمله معك.

﴿فَأَقْبِرْهُ﴾: كرامة الجسد بعد انطفاء الحركة

لم يقل: أماته فطرحه، بل قال: ﴿فَأَقْبِرْهُ﴾؛ أي جعل له قبراً، وشرع أن يُوارى ويُكرم بالدفن، ولم يترك جسده نهياً للسباع أو عرضةً للامتهان. وفي هذه الكلمة لمسةٌ من تكريم الإنسان حتى بعد موته؛ فقد خرجت الروح، وانقطعت منفعة الجسد في ظاهر الناس، ومع ذلك بقيت له حرمة.

وهذا يهدم منطقاً نفعيةً يقيس الكرامة بما ينتجه الإنسان. فالميت لا ينتج شيئاً، ومع ذلك يُغسّل ويُكفّن ويُصلّى عليه ويُحمل برفقٍ ويوارى. لأنّ كرامته لم تكن راتباً على وظيفته، بل معنىً منحه الله لآدميته.

إذا كان الإسلام يصون جسد الإنسان بعد موته، فكيف يُهان حياً بسبب فقره أو إعاقته أو ضعفه؟ وكيف تُداس كرامته لأنه لم يعد نافعاً في حساب السوق؟ إنّ كلمة ﴿فَأَقْبِرْهُ﴾ تنشئ أخلاقاً تمتد من العناية بالحي إلى حرمة الميت، ومن استقبال القادم إلى توديعه.

والقبر نفسه موعظة صامتة؛ مساحة ضيقة تستقبل ما لم تسع له الدنيا من طموح الإنسان. كان يريد المزيد من الأرض، ثم لا يحتاج عند موته إلا إلى موضع يضم جسده. كان يختلف مع الناس على الحدود والمناصب، فإذا حُمل إلى قبره صار عاجزاً حتى عن اختيار الجهة التي يوضع فيها.

لكن القرآن لا يجعل القبر خاتمة مظلمة؛ إنه يذكر الإقبار بين إماتة ونشر، فيغدو التراب موضع انتظار. كما تستقر الحبة في الأرض ثم تنفلق حين يأذن الله، يستقر الجسد في قبره إلى ميقات معلوم. والفارق أن الحبة لا تعي انتظارها، أما المؤمن فيعرف أن وراء السكون نداءً سيلاً الوجود.

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرُهُ﴾: الإرادة التي تعيد التراب إنساناً

بعد الإماتة والإقبار يأتي البعث: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرُهُ﴾؛ أي أحياء وأخرجه من قبره. لم يقل: إن شاء، على معنى الشك في وقوع البعث، وإنما ﴿إِذَا﴾ الدالة على تحقق ما يستقبل، مع تعليق توقيته بمشيئة الله وحده. فالبعث آتٍ لا ريب، لكن موعده من الغيب الذي استأثر الله بعلمه.

وما بين خلقه من نطفة ونشره من قبر يتجلى سلطان واحد. الذي قدر الخلية الأولى حتى صارت إنساناً، لا يعجز أن يجمع ما تفرق من جسده؛ والذي أخرج أول مرة حياة واعية من مادة لم تكن تحمل في ظاهرها شيئاً من سمات الإنسان، قادر على الإعادة. إن استبعاد البعث ناشئ عن قياس قدرة الله على قدرة البشر، وهو قياس فاسد؛ لأن العجز وصفنا لا وصف الخالق.

نحن إذا صنعنا شيئاً ثم تحطم قد نعجز عن إعادته، لأن معرفتنا محدودة وموادنا خارجة عن قدرتنا، أما الله فقد خلق المادة وقوانينها وأحاط بكل ذرة منها علماً. لا يضيع عنده ما تشتت في البحر، ولا ما احترق وصار رماداً، ولا ما أكلته الأرض؛ فالفناء في نظرنا تحول في الصور، أما علم الله فلا يغيب عنه شيء.

وقوله ﴿أَنشُرُهُ﴾ يرسم حركة بعد سكون؛ القبور تنفتح، والأجساد تقوم، والبشر ينتشرون في أرض المحشر. كل الذين ابتلعهم القرون يخرجون في لحظة واحدة: ملوكٌ وعبيد، ظالمون ومظلومون، من ظنوا أنهم نسوا ومن ظنوا أن جرائمهم دُفنت معهم.

البعث استردادٌ للمعنى

ليس البعث استعراضاً للقدرة وحدها، بل ضرورةٌ للعدل والحكمة. لو انتهت الحياة عند القبر لاستوى في النهاية قاتلٌ وضحيته، وخائنٌ ومن وفى، ومن عاش للحق ومن سحقه ثم نجا بحيلة القانون. لكن الله الذي قدر الخلق لم يترك المعنى ناقصاً؛ وراء القبر محكمةٌ لا تضيع فيها بينة، ولا يملك فيها صاحب نفوذ أن يشتري الحكم.

الآخرة هي التي تحمي القيمة الأخلاقية من أن تصبح وهماً جميلاً. إن كان الظلم قادراً على أن يحقق آخر انتصارٍ له بالموت، فما معنى التضحية من أجل العدل؟ وإن كان المجرم والمصلح يعودان إلى عدمٍ واحدٍ، فما المصير الذي يميز بين الطريقتين؟ يأتي البعث ليقول: ما حدث على الأرض لم يهمل، وكل دمعةٍ ويدٍ وعهدٍ وخيانةٍ محفوظةٌ في علم الله.

والإيمان بالبعث لا يدفع الإنسان إلى الحرب من إصلاح الدنيا، بل يمنحه شجاعة الإصلاح؛ لأنه يعلم أن الهزيمة الظاهرة ليست نهاية الحق، وأن ثمن الموقف لا يضيع، وأن العدل الذي

يعجز البشر عن إقامته كاملاً له يومٌ يستوفي فيه كل نقص. ومن أيقن بالنشر بعد القبر استطاع أن يقول للباطل: لا، حتى إن بدا الباطل أقدر على إيدائه.

﴿إِذَا شَاءَ﴾: الزمن ملكٌ لله

في تعليق النشر بالمشيئة ردُّ آخر على غرور الإنسان. أنت لا تحدد بداية الرحلة ولا نهايتها ولا لحظة العودة. الزمن كله في قبضة الله، وما تسميه تاريخك الشخصي ليس إلا مقطعاً صغيراً في تقديرٍ أوسع. وقد يُمهل الله أئماً وأفراداً، فيظنون أن الإمهال نسيان، لكن تأخير الحساب ليس إلغاءً.

إنَّ الإنسان يستعجل ما يحب، ويستبطئ ما يخاف، ثم يتصور أن ببطء الشيء دليل عدم مجيئه. لكن مقاييس الزمن البشرية لا تحكم الوعد الإلهي. فالذي قال: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشُرْهُ﴾ لا يعجزه النشر، وإنما أخر كل شيءٍ لأجله المعلوم.

وهنا يتعلم القلب نوعاً آخر من الطمأنينة: لا تستعجل عدل الله حتى تسيء الظن بحكمته، ولا تظن أن ما لم تره لن يقع. أنت تعيش داخل صفحةٍ من كتاب، فلا تحكم على القصة قبل أن تبلغ خاتمتها.

﴿كَأَنَّ﴾: ردُّ ثانٍ بعد عرض الرحلة

بعد أن استعرضت السورة رحلة الإنسان من النطفة إلى البعث، تعود كلمة ﴿كَأَنَّ﴾. جاءت الأولى بعد اختلال ميزان الاهتمام لتعلن كرامة التذكرة، وتأتي هذه لتردع الإنسان عن جحوده بعد أن كُشف له أصل خلقه وتقديره وتيسير سبيله وإمائه وإقباره ونشره.

كأنَّ السورة تقول: ليس الأمر كما يظن الإنسان؛ لم يُخلق سدى، ولم يُترك بلا أمر، ولم تُمنح له الحياة ليستهلكها ثم يمضي من غير تبعه. ليست النعم ملكاً خالصاً له، ولا الزمن أرضاً بلا صاحب، ولا القبر نهايةً تسدل الستار على كل شيء.

﴿كَلَّا﴾ حاجزٌ أمام التبرير؛ فلا مجال بعد هذه الأدلة أن يعيش المرء كأن لا خالق ولا أمر ولا بعث. قد يختار الإعراض، لكنه لن يستطيع أن يسميه نقصاً في البيان. لقد حوَّصر غروره بدايته ونهايته، وبما بينهما من العناية.

﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرُهُ﴾: المهمة التي لم تكتمل

ثم يأتي الحكم الجامع: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرُهُ﴾. رغم كل ما أُعطي الإنسان، لم يؤدِّ بعدُ ما أمره الله به أداءً كاملاً. و﴿لَمَّا﴾ تدل على أن الفعل لم يقع إلى زمن الكلام مع توقع وقوعه؛ وكأنها لا تغلق الباب نهائياً، بل تضع الإنسان أمام فرصة العمر الباقي: لم تقضِ بعد، وما دام في صدرك نفسٌ فباب التدارك مفتوح.

إنها آيةٌ تهدم وهم الاكتمال الروحي. مهما عمل الإنسان يظلُّ بينه وبين تمام العبودية مسافة، ولذلك لا يحق له أن يستغني بطاعته كما استغنى غيره بماله. ربما ينجو من استغناء الثروة، ثم يقع في استغناء العبادة؛ يرى لنفسه فضلاً، ويحسب أنه قضى ما عليه، فيتوقف قلبه عن الافتقار.

حتى الصالح حين يقرأ ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرُهُ﴾ يشعر أن الطريق لم ينته، وأن الفرائض ليست وحدها كل المطلوب؛ فهناك حقوقٌ لله وحقوقٌ للعباد، ونقائص في الإخلاص، وأبواب خيرٍ لم تفتح بعد، وآثار ذنوبٍ تحتاج إلى توبة، ونعمٌ لم يؤدِّ شكرها.

ولا تعني الآية أن الإنسان مطالبٌ بكُلِّ الملائكة أو بما يتجاوز استطاعته؛ فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها. لكنّها تكشف ميل النفس إلى إعلان النجاح قبل انتهاء الامتحان، وإلى الاطمئنان لصورتها عن نفسها بدل دوام محاسبتها. إنّ المؤمن لا يعيش في يأسٍ من القبول، ولا في غرورٍ بالعمل؛ يسير بين الرجاء والخوف، ويعلم أن رحمة الله أوسع من تقصيره، لكنّ سعة الرحمة لا تجعله يستهين بالأمر.

ما الذي أمره الله به؟

أمره أن يعرف خالقه ويوحّده، وأن يعبده ولا يشرك به شيئاً، وأن يقيم العدل، ويؤدي الأمانة، ويرحم الضعيف، ويشكر النعمة، ويعمر الأرض بالحق. لم يأمره بطقوسٍ منفصلةٍ عن الحياة، بل بعبوديةٍ تشمل قلبه وعقله وعلاقاته وماله وسلطانه.

ومن قضاء الأمر أن يعبد الله في الموضع الذي أقامه فيه؛ فالعالم يقضي أمره حين يصون المعرفة من الكتمان والتزيف، والحاكم حين يقيم العدل، والغني حين يعرف حق الفقير، والوالد حين يرعى أمانته، والكاتب حين لا يجعل الكلمة خادمةً لهواه. ليست العبودية انسحاباً من الوظائف، بل تطهيراً لها من الأنانية.

وقد يصلي الإنسان، ثم لا يكون قد قضى ما أمر به في لسانه إذا آذى الناس، ولا في ماله إذا منع الحقوق، ولا في قلبه إذا امتلأ بالكبر. الدين لا يُختصر في زاويةٍ يختارها المرء ويترك بقية حياته بلا ميزان. الله الذي خلقه كلّ يريد منه عبوديةً تشمل كلّ.

بين الأمر الكوني والأمر الشرعي

قضى الله على الإنسان أمره الكوني: خلقه من نطفة، وقدره، وسرّ سبيله، ثم يميتة ويقبره وينشره؛ ولا يملك الإنسان أن يخرج من هذا التقدير. لكن بقي عليه أن يستجيب للأمر

الشرعي الذي منحه الله فيه الاختيار. جسده مطيعٌ في قوانينه، وقلبه مكلفٌ أن يطيع في إرادته.

يا للمفارقة: خلايا جسده تعمل داخل النظام الذي قدّره الله، والدم يجري بأمره، والرئة تنفس بما أودع فيها، ثم يقف اللسان نفسه الذي يعمل بقدرة الله ليحمد الله! كل كيان الإنسان شاهدٌ بالافتقار، بينما قد يعلن وعيه الاستغناء. إنه يعيش بالطاعة الكونية، ثم يتمرد في مساحة التكليف.

والعبودية هي أن ينسجم الاختيار مع الحقيقة التي يقوم بها الوجود كله؛ أن يقول القلب لله ما تقوله كل خليةٍ بلسان حالها: لا قيام لي إلا بك. وحين يطيع الإنسان لا يدخل نظاماً غريباً عنه، بل يعود إلى النعمة التي يسبح بها الكون.

لم يقضِ أمره لأنه أضاع ميزان الإنسان

وترتبط هذه الخاتمة بمطلع السورة ارتباطاً عميقاً؛ فمن جملة ما أمر به الإنسان أن يقيم العدل في نظرته إلى الناس، وآلا يقدم المستغني لمكاته على الساعي لخشيته. فالعبوسة ليست حادثةً منفصلةً عن العبودية، بل جزءٌ من السؤال الكبير: هل قضى الإنسان ما أمر به في أخلاق وجهه وقلبه ومجلسه؟

نحن نميل إلى تصور الأمر الإلهي في التكاليف الكبرى الظاهرة، لكن السورة تدخل به إلى انقباض الملاحم وإلى توزيع الانتباه. وهذا يعني أن العبودية لا تسكن المحراب وحده؛ إنها تسكن الوجه حين يفاجئه الضعيف، والأذن حين يقطعها السائل، والقلب حين يقارن بين الناس.

قد يقضي الإنسان أمر الصلاة في ظاهرها، ثم لا يقضي أمر الرحمة؛ ويؤدي حق التلاوة، ثم لا يؤدي حق التذكرة؛ ويحفظ الصحف في بيته، ثم لا يحمل من كرامتها إلى تعامله. فالدين لا يتجزأ في أثره الأخلاقي، وإن تفاوتت الفرائض والأحكام في مراتبها.

نعمة عدم الاكتمال

قد تبدو جملة ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ ثقيلة؛ لأنها تواجه الإنسان بتقصيره، لكنها تحمل في باطنها رحمةً عظيمة. الاعتراف بعدم الاكتمال هو الذي يبقى باب النمو مفتوحاً. أما من ظن أنه اكتمل، فقد حكم على نفسه بالتوقف.

إنّ النقص الذي تعرفه يمكن إصلاحه، والنقص الذي تنكره يتحول إلى سجن. ولهذا كان الأنبياء والصالحون أكثر الناس استغفاراً، لا لأنهم أقل معرفةً بالطريق، بل لأن قربهم من النور جعلهم أبصر بما يحتاج إلى تطهير. كلما ارتفع الإنسان رأى من آفاق الكمال ما يجعله أقل إعجاباً بمسافته المقطوعة.

ولا ينبغي أن يتحول وعي التقصير إلى احتقارٍ للنفس أو قنوط؛ فالله لم يكشف نقصك ليغلق الباب، بل لتدخل منه إلى التوبة. الفرق بين الندم المصلح واليأس المدمر أن الأول ينظر إلى التقصير ثم يتحرك نحو الله، والثاني ينظر إلى نفسه حتى يحجبها عن رحمة الله.

قولك: لم أقضِ ما أمرت به، ينبغي أن يتبعه: وما زال في العمر موضعٌ لقضاء شيءٍ منه. ما دامت الروح في الجسد، فليس الماضي حكماً نهائياً؛ تستطيع أن تردّ مظلمة، وتستغفر من ذنب، وتفتح باباً أغلقته، وتكرم إنساناً توليت عنه، وتبدأ من جديد.

سجلّ النعمة وسؤال الوفاء

رتبت الآيات أفعال الله في الإنسان: خلقه، فقدّره، ثم السبيل يسهّره، ثم أماته، فأقبره، ثم إذا شاء أنشره. وفي مقابل هذا الفيض من الأفعال الإلهية يأتي فعل الإنسان ناقصاً: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾. الله أحسن إليه في كل مرحلة، والإنسان لم يستوفِ مقتضى العبودية.

ليست القضية صفقة متكافئة؛ فالإنسان لا يستطيع أن يردّ نعمة الخلق، ولا أن يدفع ثمن نفسٍ واحد. لكنّ الله لم يطلب منه مكافأةً تساوي العطاء، وإنما طلب شكرًا داخل استطاعته، وطاعةً هي نفسها خيرٌ له. حتى الأمر الذي يطالبنا بقضائه ليس حاجةً عند الله، بل رحمةٌ بنا؛ فنحن ننتفع بطاعتنا، كما أننا وحدنا نتضرر من الجحود.

إنّ الله غنيٌّ عن سجدتنا، لكن أرواحنا لا تستقيم إلا بالسجود؛ غنيٌّ عن صدقنا، لكن حياتنا تنهار حين يسود الكذب؛ غنيٌّ عن عدلنا، لكن الأرض تتحول إلى جحيمٍ حين نفقده. أوامر الله ليست ضرائب يأخذها من عباده، بل طرق نجاةٍ يعود نفعها عليهم.

الإنسان بين فترتين من العجز

بدأ الإنسان نطفةً عاجزة، وينتهي جسداً في قبرٍ لا يملك لنفسه حركة. وبين العجزين فسحةٌ قصيرةٌ يسمّيها الحياة، يُمنح فيها شيئاً من القدرة، فيُبتلى: هل يتذكر أصلها أم يتوهم ملكها؟ هل يستعملها في قضاء الأمر، أم يصنع منها دليلاً على الاستغناء؟

إنّ القوة التي بين العجزين ليست ملكاً دائماً، بل أمانةٌ مؤقتة. الشباب بين طفولةٍ وشيخوخة، والصحة بين ضعفٍ سابقٍ واحتمال مرض، والسلطان بين يومٍ لم يكن فيه ويومٍ سينزع منه. ما من نعمةٍ زمنيةٍ إلا وهي محاطةٌ بإشارات الفناء، لكن الإنسان يغمض عينيه عن الأطراف ويتعامل مع المنتصف كأنه الأبد.

الحكيم ليس من يكره القوة لأنها زائلة، بل من يعرف كيف يودع فيها عملاً باقياً. يجعل من الصحة عبادةً وخدمة، ومن المال صدقةً وعمراً، ومن العلم هداية، ومن الجاه نصرةً للمظلوم؛ فيحوّل العارية إلى زاد، والزائل إلى أثرٍ لا يزول.

السيرة المختصرة للوجود

في سبع آياتٍ فقط تلخص السورة سيرة الإنسان كلها: بحوده، وأصله، وخلقه، وتقديره، وطريقه، وموته، وقبره، وبعثه، ومسؤوليته. إنها سيرةٌ تنزع التفاصيل التي نظنها مركّبة، وتبقي الأعمدة التي لا مفر منها.

أين المناصب التي استغرقت الأعمار؟ أين الخصومات التي ملأت القلوب؟ أين التصفيق الذي عاش الإنسان يطارده؟ لم يذكر القرآن شيئاً من ذلك؛ لأنه حين تُروى السيرة من جهة المصير، تسقط هوامش كثيرةٌ حسبتها متناً.

ولو كتب الإنسان سيرته في ضوء هذه الآيات لتغيّر ترتيب فصولها. لن يبدأ بالقلب الذي ناله، بل بالنعمة التي خلّق بها؛ ولن يجعل نجاحه فيما جمع وحده، بل فيما قضى من أمر الله؛ ولن تكون النهاية خبر موته، بل السؤال عما سيبعث عليه.

إنّ أعظم مأساةٍ ليست أن يموت الإنسان قبل أن يحقق كل رغباته، بل أن يموت قبل أن يعرف لماذا عاش. وأن يمتلئ جدوله بالأعمال، ثم يلقي الله ولم يقضِ المهمة التي خلق لها؛ وأن ينجح في أعين الناس، بينما ظلت روحه واقفةً عند أول الطريق.

ولهذا لا تتركنا السورة عند القبر، بل تعيدنا إلى الأمر: ستُنشَر، وقبل أن تُنشر بقي عليك أن تقضي ما أمرت به. فما دام القلب ينبض، فإن الصفحة لم تُغلق، وما دام الطريق أمامك، فلا تجعل معرفة التقصير مرثيةً لنفسك، بل اجعلها بدايةً لسعيٍ جديد.

لقد جاء الإنسان من نطفةٍ لا تملك شيئاً، وسيمضي إلى قبرٍ لا يحمل إليه شيئاً، ولن يبقى له
بينهما إلا ما كان لله. وكل ما عدا ذلك ضجيجٌ يعبر، أما الأمر الذي قضاه أو ضيَّعه فهو
الحقيقة التي ستنهض معه يوم يقول الله للتراب: أخرج ما فيك.

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ: سِيرَةُ اللُّقْمَةِ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْيَدِ

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿وَحَدَاقٍ غَلْبًا﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾

بعد أن ردت السورة الإنسان إلى أصل خلقه، وساقته رحلته من النطفة إلى القبر ثم إلى البعث، لم تتركه يحلق في المعاني الكبرى بعيداً عن يومه المألوف، بل أخذت بيده إلى أقرب الأشياء إليه وأكثرها تكراراً: إلى طعامه. كأنها تقول له: إن كنت ترى الخلق الأول والموت والبعث قضايا بعيدة عن انتباهك، فانظر إلى اللقمة التي ترفعها كل يوم إلى فمك؛ ففيها من دلائل القدرة والعناية ما يكفي لقلبٍ يريد أن يرى.

إنَّ السورة لا تنقلنا من العظيم إلى الصغير؛ فاللقمة في ميزان التأمل ليست صغيرة، وإنما الألفة هي التي صغرتها في أعيننا. وراء قطعة الخبز تاريخٌ من الماء والتراب والضوء والحرارة والزمن والعمل، ووراء الثمرة منظومةٌ من السنن لو اختلَّ منها شيءٌ ما وصلت إلى اليد. نحن لا نأكل أشياء مفردة، بل نأكل خاتمة تعاونٍ كونيٍّ عجيب، لكنَّ المسافة بين النعمة وحواسنا قصيرة، فتختفي الرحلة الطويلة التي سبقتها.

إنَّ الإنسان كثيراً ما يطلب آيةً خارقةً، بينما حياته كلها محاطةٌ بآياتٍ عطلَّ التكرارُ دهشته منها. يريد أن يرى ما يخالف العادة، ولا ينتبه إلى أن انتظام العادة نفسه معجزة؛ فأن

تستيقظ الأرض في كل موسم، وأن تحفظ البذرة سرّ الحياة في صمتها، وأن ينزل الماء فيجد كل جذر حاجته، ليس أقل دلالةً من الحدث المفاجئ، وإنما نجبنا عنه بكثرة وقوعه.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ﴾: من العبور على الأشياء إلى قراءتها

تبدأ الآية بالفاء: ﴿فَلْيَنْظُرِ﴾؛ وكأنها تبني ما بعدها على ما سبق. لما كان الإنسان لم يقض ما أمره، فليعد إلى أبسط النعم، ولينظر فيها؛ فلعل النظر يوقظه من جحوده، ويردّه إلى الشكر. إنّ الخلل لم يكن دائماً في قلة البراهين، بل في طريقة النظر.

والنظر في القرآن ليس حركة العين وحدها، بل انتقالٌ من ظاهر الشيء إلى دلالاته، ومن الصورة إلى الحكمة، ومن النعمة إلى المنعم. قد يرى الناس الطعام جميعاً، ولكن قليلاً منهم ينظر إليه بهذا المعنى. العين تسجل اللون والشكل، واللسان يعرف المذاق، أما البصيرة فتسأل: من ساق الماء؟ ومن شق الأرض؟ ومن أودع في البذرة علمها الصامت بطريق النمو؟

تأمل كيف بدأت السورة بإنسانٍ أعمى، ثم قالت هنا: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ﴾. إنّها لا تخاطب العين وحدها؛ فقد عجز أصحاب الأبصار في مطلع السورة عن رؤية قيمة الرجل الذي جاء يسعى، بينما أبصر الأعمى طريق الهدى. فالمطلوب نظراً يتجاوز الحاسة إلى المعنى، وإلا فقد يمتلك الإنسان عينين ولا يرى شيئاً مما خلق البصر لأجله.

المشكلة الكبرى ليست أن تغيب الأشياء عن أعيننا، بل أن تحضر من غير أن تقول لنا شيئاً. تمرّ النعمة فلا توقظ شكراً، ويمرّ الموت فلا يصنع استعداداً، ويمرّ المظلوم فلا يوقظ عدلاً. وهكذا تتحول العين من بابٍ للمعرفة إلى سطحٍ تعبر عليه الصور من غير أن تبلغ القلب.

النظر عبادةً للعقل والقلب

أمر الله الإنسان أن ينظر؛ فالإيمان القرآني لا يُبنى على تعطيل العقل، بل على تحريره من السطحية. إنَّ الكون ليس منافساً للوحي، بل كُتِّبَ آخر يدل على كاتبه، والوحي هو الذي يعلِّمنا كيف نقرأه. حين ينظر المؤمن إلى المطر لا يكتفي بوصف مساره المادي، ولا ينكر قوانينه، بل يرى القانون نفسه من تقدير الله.

والتفسير العلمي لعملية الإنبات لا يلغي المعجزة، بل يكشف طبقاتٍ جديدةً من دقتها. أن نعرف كيف تمتص الجذور الماء لا يجيب وحده عن سؤال: من أعطى الجذر هذه القابلية، ومن أقام العلاقة بينه وبين التربة، ومن جعل قوانين المادة منسجمةً مع قيام الحياة؟ العلم يصف جانباً من الكيفية، أما الإيمان فيردّ النظام كله إلى إرادة الخالق وحكمته.

لا خصومة بين معرفة السبب ورؤية مسببه؛ الخصومة تنشأ حين يظن الإنسان أن اكتشاف الآلية قد ألغى الحاجة إلى من أقامها. كمن يفهم حركة عقارب الساعة، ثم يزعم أن فهم التروس برهانٌ على عدم وجود الصانع. كلما اتسعت المعرفة الصادقة بالنظام، اتسعت الدهشة، ما لم يتدخل الكبر ليغلق باب الدلالة.

﴿إِلَى طَعَامِهِ﴾: الشيء الأقرب الذي لا نعرف قصته

نسب الله الطعام إلى الإنسان: ﴿طَعَامِهِ﴾، مع أن الإنسان لم يخلق منه حبةً واحدة. هو طعامه من جهة الانتفاع والحياة، لكنه عطاء الله من جهة الإيجاد والتقدير. وهذه الإضافة تحمل معنى التسخير: لقد جعل الله من عناصر العالم ما يتحول إلى غذاءٍ يناسب هذا الجسد، وكأنَّ بين حاجته وبين الأرض اتفاقاً سابقاً لم يكتبه هو.

يجوع الجسد، فيجد في الحبوب والثمار ما يعيد بناء خلاياه ويمده بالطاقة. كيف عرف النبات حاجة الإنسان؟ وكيف صار ما يخرج من التراب مناسباً لجهازه الداخلي؟ لم تجلس الأمعاء مع الشجرة لتتفقا على الوظائف، ولم يكتب الإنسان قوانين الهضم والتركيب؛ إنها وحدة التقدير التي جعلت الكون والحياة يتكاملان تحت ربوبية واحدة.

والطعام من أكثر النعم اتصالاً ببقاء الإنسان، ومع ذلك قد يكون من أسرعها إلى النسيان؛ لأنه يتكرر كل يوم. نعمة الهواء أشدّ خفاءً لكثرة حضورها، ونعمة الماء قد لا تُدرك إلا عند العطش، ونعمة الطعام لا ينكشف قدرها إلا حين تُفقد. كأنّ النفس تحتاج أحياناً إلى غياب النعمة كي تراها، مع أن البصيرة الشاكرة تراها وهي حاضرة.

ليس المطلوب أن يتحول الطعام إلى قلقي فلسفيّ يثقل بساطة الحياة، بل أن يعود إلى موضعه الصحيح: نعمةٌ تُستقبل باسم الله، وتؤكل باعتدال، ويُشكر عليها، ويُذكر عندها من حُرّمها. فالوعي لا يفسد اللذة، بل يطهرها من الغفلة ويمنحها معنىً أعمق.

الطعام ليس مادةً فقط

في القرآن يتجاوز الطعام وظيفته الجسدية إلى وظيفة أخلاقية. فهناك حلالٌ وحرامٌ، وطيبٌ وخبيثٌ، وإطعامٌ ومنعٌ، وشكرٌ وإسراف. ليست القضية ماذا يدخل الفم فقط، بل من أين جاء، وكيف كُسب، ومن حُرّم منه، وماذا صنع في القلب.

قد تكون اللقمة في ذاتها طيبة، لكن يداً ظالمةً وصلت إليها من طريق الحرام؛ وقد يكون الطعام كثيراً، لكن الإسراف يخلع عنه بركة الشكر؛ وقد يشبع إنسانٌ وحده وجاره جائعٌ، فيتحول امتلاء بطنه إلى سؤالٍ أخلاقي. إنّ النعمة لا تُقاس بمذاقها وحده، بل بالطريق الذي جاءت منه، والطريقة التي استُعملت بها.

ومن هنا كان النظر إلى الطعام نظراً في شبكة العدالة المحيطة به. من زرع؟ ومن حصد؟ وهل نال العامل حقه؟ وكَم أُلقي من الطعام في القمامة بينما ينام جائع قريباً؟ لا يكتمل شكر النعمة بعبارة الحمد إذا كان سلوكنا يبدها أو يحبسها عن مستحقها.

إنَّ الجائع لا يحتاج أن نحدثه طويلاً عن فلسفة الطعام، بل أن نعطيه منه؛ لأنَّ أبلغ صور النظر إلى النعمة أن ترى بها حاجة غيرك. ومن شكر الله على خبزه ثم كسره نصفين بينه وبين محتاج، فقد فهم الدرس أكثر ممن أحصى وجوه الإعجاز وبقيت يده مغلقتين.

﴿أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾: أول الحكاية ينزل من السماء

تبدأ سيرة الطعام بالماء: ﴿أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾. لم تقل الآية: نزل الماء، بل نسبت الفعل إلى الله: ﴿صَبَّبْنَا﴾؛ لكي لا تحجبنا الظاهرة عن فاعلها، ولا يجعلنا انتظام القانون ننسى من أقامه. والسحاب والرياح والحرارة أسبابٌ تعمل بأمر الله، وليست آلهةً صغيرةً تشاركه التدبير.

والمصدر ﴿صَبًّا﴾ يؤكد الفعل ويجعل العين كأنها ترى الماء منسكباً غزيراً، متتابع القطرات، يهبط من السماء إلى أرضٍ تنتظره. مشهدٌ يتكرر حتى يكاد الإنسان لا يرفع إليه رأسه، مع أن كل قطرةٍ منه قطعت دورةً دقيقةً في نظام العالم، وانتقلت من حالٍ إلى حال، ثم سُخِّرَت لتصل في وقتٍ ومقدار.

الماء واحدٌ في ظاهره، لكن آثاره لا تكاد تُحصى: يشربه الإنسان، وتشربه الأرض، ويحمله الجذر، ويجري في العروق، وتغتسل به الأجساد، وتتحول به البذرة الساكنة إلى حياة. لا لون له، ثم يصعد في النبات فيمنح الثمار ألواناً، ولا طعم غالباً له، ثم يدخل العنب والزيتون والنخل فتتعدد به المذاقات.

أَيَّ سِرٍّ هذا الذي يجعل المادة الواحدة تخرج من الأرض أشكالاً مختلفة؟ لو كان الماء وحده صانع الثمر لكان الناتج متشابهاً، لكنه سببٌ من أسباب التقدير، يرمي في كل نبته فتستقبله وفق ما أودع الله في بذرتها من خصائص، ثم تعيده إلى الإنسان لونا وطعماً ورائحةً وغذاء.

ماء السماء وافتقار الحضارة

مهما بلغت الحضارة من القوة، فإنها تظلّ معلقةً بقطرات المطر ومصادر الماء. قد تبني المدن الشاهقة، وتصنع الآلات الدقيقة، لكنها لا تستطيع أن تستغني عن أبسط عناصر الحياة. وفي ذلك تذكيرٌ بأن تقدم الإنسان لا يخرج من عبوديته؛ يتغير شكل حاجته، لكن أصل الافتقار باقٍ.

حين يقلّ الماء، تنكشف هشاشة ما حسبته الإنسان قوةً مطلقة. تتراجع الزراعة، وترتفع الأسعار، وتهاجر جماعات، وقد تنصارع الدول على منابع النهر. قطرةً واحدةً لا تلفت النظر حين تفيض، لكن غيابها يعيد تشكيل السياسة والاقتصاد والحياة.

وإذا كان الماء بهذا القدر، فحفظه من الإسراف والتلوث جزءٌ من شكر الله. ليس من الوفاء للنعمة أن نتحدث عن قدسيّتها ثم نفسد مصادرها، أو نهدرها لمجرد أنها تصل بسهولة. إنّ الموارد المسخرة للإنسان أمانة، والاستخلاف لا يعني رخصةً في الإفساد، بل مسؤوليةً في الرعاية.

المطر بين الرحمة والقدر

قال تعالى: ﴿صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾، لكنّ هذا الصب يقع بقدره؛ فقد ينزل الماء رحمةً، وقد يتحول حين يشاء الله إلى ابتلاء. ليست الكثرة خيراً في ذاتها إن تجاوزت موضعها، كما أن القلة قد تكون هلاكاً. الحكمة في المقدار والتوقيت والتوزيع، لا في وجود المادة وحدها.

وهكذا شأن النعم كلها: المال إذا انضبط كان عمراً، وإذا فاض عن ميزان الأخلاق صار طغياناً؛ والكلام إذا جاء في موضعه كان هداية، وإذا تجاوز حدّه صار أذى؛ والعاطفة إذا حكمتها البصيرة كانت رحمة، وإذا انفلتت صارت فتنة. ليس الخير في الامتلاء دائماً، بل في التقدير الذي يضع كل شيء حيث يصلح.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾: الحياة تخرج من موضع الصمت

بعد نزول الماء تأتي الأرض: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾. إنها صورةٌ مهيبَةٌ حين تُرى بقلبٍ يقظ: أرضٌ صلبةٌ ساكنة، تُخجئُ البذور في ظلمتها، ثم تنشقُّ عن ساقٍ رقيقةٍ تبدو أضعف من أن تنزع ذرة تراب، فإذا بها تشق طريقها إلى الضوء.

من أعطى تلك النبتة الصغيرة قوة الاتجاه؟ كيف عرفت أن الأعلى موضع الضوء، وأن الأسفل مجال الجذر؟ من شق لها التراب من غير يدٍ تمسك بمعول؟ إنها قدرة الله تعمل في الهادئ والمألوف، حتى يصبح كل حقلٍ صفحةً مفتوحةً من كتاب البعث.

وليس الشقّ فعلاً عنيفاً يدمر الأرض، بل فتحٌ رحيمٌ يتيح للحياة أن تظهر. إنّ بعض الانشقاقات ولادة؛ تنكسر القشرة لكي يخرج منها النمو، ويضيق الرحم في لحظة المخاض لكي يعبر الإنسان إلى العالم. وقد يمرّ المرء في حياته بشقوقٍ يظنها نهاية تماسكه، ثم يخرج منها معنيّاً لم يكن ليولد في الرخاء.

لا ينبغي أن نعمل الآيّة ما لا نحتمل، فنحوّل كل ألم إلى وعدٍ دينويٍّ بنتيجةٍ محددة؛ لكنّ مشهد الإنبات يعلم القلب أن الظلمة والسكون لا يعينان دائماً الموت، وأن ما خفي في الأرض قد يكون في طور التكوين. نحن نستعجل الثمرة، بينما يعمل تقدير الله في الجذور التي لا نراها.

الأرض تشفق كما تشفق القبور

يرتبط هذا المشهد بما سبقه من قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرُهُ﴾. فالذي يشق الأرض كل عام عن النبات، سيشفقها يوم البعث عن البشر. إنّ مشهد الزرع برهانٌ متكرّرٌ على إمكان النشور؛ حياةٌ تخرج من أرضٍ حسبها الناظر ميتة، وجمالٌ يتشكل من تراب.

يأكل الإنسان الثمرة، وهي تحمل في داخلها دليل بعثه، لكنه يلتهم الدليل وينسى ما يدل عليه. يرى الأرض الميتة تحيا بالماء، ثم يستبعد أن يحيا جسده إذا جاء أمر الله. كأنّ السورة تقول: إنّ جثتك على البعث في يدك، وإن كل لقمةٍ خرجت من الأرض تشهد على أن القبر ليس أقوى من القدرة التي تشقّ الأرض.

الفرق بين إنبات الزرع وبعث البشر ليس في أصل القدرة، وإنما في صورة الفعل وميقاته. وإذا أقرّ الإنسان بأن الحياة ظهرت أمامه في النبات، فما الذي يجعله ينكر ظهورها في جسده بعد موته إلا قياس الغيب على حدود تجربته؟

﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾: الكثرة المطوية في الحبة

أول ما ذكر من الخارج من الأرض: ﴿حَبًّا﴾، وهو أصلٌ عظيمٌ من أصول غذاء الإنسان؛ يدخل في خبزه وقوته، وتقوم عليه حياة أممٍ كاملة. والحبة صغيرة، لكنها تحمل قابلية التكاثر؛ تُدفن واحدةً فتخرج سنبلةً ممثلةً، ثم تصبح كل حبةٍ منها بداية احتمالٍ جديد.

وهذه سنةٌ من سنن البركة: أن يودع الله الكثير في القليل. لا تحقر البدايات الصادقة لصغرها؛ فقد يكون كتابٌ في كلمة، ومشروعٌ في فكرة، وغابةٌ في بذرة، وتحولٌ عمرٌ في لحظة توبة. نحن نرى الحجم الحاضر، والله يعلم الامتداد المودع فيه.

لكنّ الحبة لا تعطي سرها وهي محفوظةٌ في المخزن؛ لا بد أن توضع في الأرض، وأن تنشق قشرتها، وأن تفقد صورتها الأولى كي تدخل طوراً أوسع. وهكذا لا تتحقق إمكانات الإنسان كلها وهو متشبثٌ بالصورة القديمة لنفسه؛ قد يحتاج إلى أن يدفن بعض غروره، ويتخلى عن عادة، ويقبل مشقة التعلم، حتى ينبت فيه ما لم يكن ظاهراً.

والحبّ يذكّرنا كذلك بأصل الحضارة؛ فالاستقرار الإنساني ارتبط بالزراعة وتخزين الحبوب وتقاسم العمل. ذلك الشيء الصغير لم يغدّ الجسد فقط، بل أسهم في بناء المدن والأسواق والعلاقات. وفي هذا دليلٌ على أن النعمة الواحدة قد تمتد آثارها إلى ما وراء وظيفتها المباشرة، وأن تدير الله يدخل في تفاصيل العمران كما يدخل في الجسد.

﴿وَعِنْبًا وَقَضْبًا﴾: من ضرورة القوت إلى بهجة التنوع

ثم قال سبحانه: ﴿وَعِنْبًا وَقَضْبًا﴾. والعنب ثمرةٌ تجمع الحلاوة والجمال وتعدد وجوه الانتفاع، أما القضب فهو النبات الرطب الذي يُقطع مرةً بعد أخرى، وقيل هو من العلف أو البقول التي يأكلها الناس والأنعام بحسب دلالته واستعمال العرب له.

لم يجعل الله غذاء الإنسان نوعاً واحداً يؤدي وظيفة البقاء في صورةٍ جافة، بل نوعٌ له الألوان والطعوم والروائح. وهذا التنوع شاهدٌ على أن الرحمة لم تكتفِ بأن تحفظ الحياة، بل أحاطتها بالجمال. كان يكفي الجسد - في حساب الضرورة المجردة - مقدارٌ محدودٌ من المواد، لكن الله جعل الطعام متعةً مباحةً وموضعاً للأنس والاجتماع.

إنَّ الجمال ليس فائضاً بلا معنى في الخلق؛ فالزهرة لا تُشبع جائعاً، لكنها تشبع جانباً في الروح، والثمرة لا تُقاس بقيمتها الغذائية وحدها، بل بما تخلقه من بهجة. ربُّ الضرورة هو ربُّ الجمال، والذي أعطى الجسد حاجته لم ينسَ أن للإنسان ذوقاً يتلقى اللون والرائحة والتناسق.

غير أنَّ الإنسان قد يحول نعمة التنوع إلى إسرافٍ أو استعلاء؛ فيصبح الطعام وسيلةً لإظهار الطبقة، وتتحول الموائد إلى مسابقات، ويهدر من الزينة ما يكفي المحتاجين. والمشكلة ليست في الاستمتاع بالطيبات، بل في أن تنقطع المتعة عن الشكر، وأن تُبنى على غفلةٍ عن حق الآخرين.

تعدد الأذواق ووحدة المصدر

يخرج الحبّ والعنب والقضب من أرضٍ واحدة، ويُسقى كثيرٌ منها بماءٍ واحد، ثم يختلف الطعام واللون والرائحة. هذه الوحدة التي تنبت تنوعاً من دلائل القدرة؛ فالاختلاف ليس بالضرورة نقيض الوحدة، بل قد يكون أثراً من آثار ثرائها.

وفي ذلك إشارةٌ تربوية: البشري يشتركون في أصل الإنسانية، ثم تختلف مواهبهم وأمزجتهم وطرائق تعبيرهم. لا ينبغي أن يتحول الاختلاف إلى إنكارٍ للأصل المشترك، ولا أن تصبح الوحدة ذريعةً لمحو الخصائص. كما لا نطلب من كل الأشجار أن تنتج الثمرة ذاتها، لا يصح أن نختزل الإنسان في قالبٍ واحد.

لكنّ تنوع الثمار محكومٌ بنظامٍ وتقدير، لا بفوضى تدمر الحقل. وكذلك التنوع الإنساني يزدهر حين يتحرك داخل العدل والحق، لا حين يُستخدم لتبرير العدوان أو إذابة الحدود الأخلاقية.

﴿زَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾: شجرتان تحملان ذاكرة البركة

يذكر القرآن الزيتون والنخل؛ شجرتين عريقَتين في حياة الإنسان، تجمعان بين الغذاء وطول النفع والقدرة على البقاء. الزيتون يعطي ثمرةً زيتاً وإداماً ونوراً في تجارب البشر القديمة، والنخل يمنح التمر والغذاء والظل، وينتفع الناس بأجزائه في وجوهٍ شتى.

إنهما ليستا ثمريتين عابرتين، بل صورتان للاستمرار والبركة؛ فالشجرة تعطي عاماً بعد عام، وتبقى آثار غارسها بعد أن يغيب. وقد يأكل إنسانٌ من نخلةٍ غرسها رجلٌ لم يلتقِ به، فيصله خير ميتٍ من طريق جذعٍ صامت. هكذا يكون العمل النافع: يمتد أبعد من عمر صاحبه.

والإنسان المؤمن مدعوٌ لأن يشبه الشجرة الطيبة؛ أصلٌ ثابتٌ في الحق، وفرعٌ ممتدٌ في الحياة، وثمرٌ يصل إلى الآخرين. ليست القيمة في ارتفاع الجذع وحده، بل فيما يحمله من نفع. وما أكثر من ارتفعت أسماؤهم ولم تُطعم أحداً، ومن اختفت أسماؤهم وبقيت ثمارهم في حياة الناس.

وقد يُعجب الناظر بالثمرة وينسى الجذر؛ لأنَّ ما تحت الأرض لا يظهر في الصورة. لكن الثبات العميق هو الذي يصنع العطاء الظاهر. وكذلك الإنسان: ما يراه الناس من كلماته وأعماله ثمرة، أما جذوره من الإيمان والصبر والمجاهدة فهي التي تحفظه حين تتغير المواسم.

النخلة في الصحراء: الأمل الذي يعرف موضع الماء

للنخل حضورٌ خاصٌ في البيئة العربية؛ يرتفع في أرضٍ شديدة الحرارة، ويستخرج من طبقاتها ما يصنع ثمراً حلواً. إنه درسٌ صامتٌ في أن قسوة المحيط لا تمنع إمكان العطاء إذا امتدت الجذور إلى موضع الحياة.

وليس معنى ذلك أن نجعل الظلم أو نطلب من الإنسان أن يحمل كل بيئة مؤذية بلا مقاومة، بل أن ندرك أن الروح قد تصنع في الشدة معنى لا تصنعه الراحة. وقد يكون الإنسان محاطاً بالقحط من الخارج، لكنه يحتفظ في داخله ببيئ من الإيمان تمنعه من أن يتحول إلى نسخة من قسوة محيطه.

إن أعظم انتصارٍ في البيئات الفاسدة ليس النجاة الجسدية وحدها، بل ألا يصير المظلوم ظالمًا، وألا يتعلم الصادق لغة الكذب لأنه محاط بالكاذبين، وألا تفقد الروح حلاوتها لأن الأرض حولها مالحة.

﴿وَحَدَائِقُ غُلْبًا﴾: حين تتجاوز القوة والجمال

ثم تسع الصورة من الثمرة المفردة إلى الحقائق: ﴿وَحَدَائِقُ غُلْبًا﴾؛ أي بساكن كثيرة الأشجار، عظيمة ملتفة غليظة الجذوع. لم تعد العين أمام حبة صغيرة، بل أمام كثافة من الخضرة، وظلال متشابكة، وأغصان تتعانق حتى تصنع عالمًا كاملاً من الحياة.

وصفها بأنها ﴿غُلْبًا﴾ يجمع القوة والجمال؛ فهي ليست زينة رخوة، بل أشجار راسخة عظيمة. وفي الخلق لا تعارض بين اللطف والصلابة؛ قد تحمل الأغصان القوية أرق الأزهار، وقد يخرج من الجذع الخشن ثمرة ناعمة حلوة.

والإنسان كذلك لا يكتمل إذا فهم القوة على أنها قسوة، أو ظن الرحمة ضعفًا. القوة الأخلاقية هي أن تملك القدرة ثم تضبطها بالرحمة، وأن تكون ثابتاً في الحق رقيقاً مع الخلق. وقد كان النبي ﷺ أقوى الناس ثباتاً، وألينهم قلباً؛ فلم تكن رحمته تنازلاً عن المبدأ، ولا كان مبدؤه مبرراً للغلظة.

والحديقة ليست شجرةً منفردة، بل جماعةٌ من الأشجار تتجاور من غير أن تلغي إحداها الأخرى. تشابك الجذور أحياناً، وتتناسل الضوء والماء، وتمنح مجتمعةً ما لا تمنحه الشجرة وحدها من ظلٍّ وتوازن. وفي ذلك صورةٌ للمجتمع الذي تتنوع طاقاته ثم تكامل؛ لا يعيش أفرادُه كجزرٍ متنافسة، بل كحديقةٍ يضيف كل غصنٍ إلى جمالها العام.

الحديقة نتيجة عنايةٍ ممتدة

لا تولد الحديقة مكتملةً في يومٍ واحد؛ تبدأ ببذورٍ وغراس، ثم تحتاج إلى ماءٍ ورعايةٍ وحمايةٍ من الآفات. وهكذا كل بناءٍ إنسانيٍّ حقيقي: الأسرة، والعلم، والمجتمع، والكتاب، والمشروع الإصلاحي. لا تنشأ الحقائق بالقفز فوق الزمن، بل بصبرٍ متكررٍ قد لا يراه من يصل متأخراً ليستمتع بالظل.

إننا نحب النتائج المكتملة، لكننا نضيق بمراحل الجذر؛ نريد ثمرةً قبل موسمها، ونقيس نجاح الفكرة في أيامها الأولى، وننسحب من الإنسان إذا لم يتغير سريعاً. أما مشهد الحديقة فيعلمنا أن التقدير يعمل بالتدرج، وأن بطء النمو لا يعني انعدامه.

لكنّ الرعاية لا تخلق الحياة من ذاتها؛ البستاني يسقي ويزيل العوائق، أما سرّ الإنبات فمن الله. وهذا يعيدنا إلى حدود المسؤولية التي سبق أن قررتها السورة: عليك العمل، وليس عليك خلق الثمرة. ازرع بأمانة، واسق بحكمة، ثم لا تتأله على النتيجة.

﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾: غذاء الإنسان والأنعام في مائدةٍ واحدة

قال سبحانه: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾؛ والفاكهة ما يتفكه به الإنسان من الثمار، والأبّ ما ترعاه الأنعام من الكلاً والمرعى. وهكذا لا تقف العناية الإلهية عند الإنسان، بل تمتد إلى الأنعام التي سُخِّرَتْ له وإلى سائر ما يعيش في شبكة الخلق.

إِنَّ اللَّهَ الَّذِي أَمَرَ الْإِنْسَانَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى طَعَامِهِ يَلْفَتْ نَظْرَهُ أَيْضًا إِلَى طَعَامِ أَنْعَامِهِ؛ لِكَيْلَا يَظَنَّ أَنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ خُلِقَ لِاسْتِهْلَاكِهِ فِي غَفْلَةٍ عَنْ مَسْئُولِيَةِ الرِّعَايَةِ. نَعَمْ، سَخَّرَ اللَّهُ لَهُ الْأَنْعَامَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَبِحْ لَهُ تَعْدِيهَا أَوْ إِفْسَادَ مَوَاضِعِ غِذَائِهَا. التَّسْخِيرُ أَمَانَةٌ، لَا طُغْيَانٌ.

وَالْفَاكِهَةُ تَتَجَاوَزُ حَدَّ الْضَرُورَةِ؛ فَهِيَ مَوْضِعٌ لَذَّةٍ وَتَجَمُّلٍ، بَيْنَمَا الْأَبُّ قَوَامُ حَيَاةِ الْحَيَوَانِ. يَجْمَعُهُمَا السِّيَاقُ لِيَكْشِفَ شَمُولَ الرَّحْمَةِ: طَعَامٌ لِلْإِنْسَانِ، وَطَعَامٌ لِمَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ. لَا تَعْمَلُ النِّعْمَةُ فِي خَطِّ وَاحِدٍ، بَلْ فِي دَوَائِرٍ مُتَدَاخِلَةٍ؛ النَّبَاتُ يَغْذِي الْحَيَوَانِ، وَالْحَيَوَانُ يَخْدُمُ الْإِنْسَانَ، وَالتُّرْبَةُ تَحْتَضِنُ النَّبَاتَ، وَالْمَاءُ يَسْرِي فِي الْجَمِيعِ.

مَا نَسَمِيهِ اسْتِقْلَالًا لَيْسَ إِلَّا غَفْلَةً عَنْ شَبَكَةِ الْعِلَاقَاتِ الَّتِي تَحْمِلُنَا. الْإِنْسَانُ الْحَدِيثُ قَدْ يَرَى الطَّعَامَ مَغْلُفًا عَلَى رِفِّ الْمُنْتَجِرِ، فَيَنْقَطِعُ وَعَيْهِ عَنِ الْأَرْضِ وَالْمَزَارِعِ وَالْحَيَوَانِ وَالْمَاءِ؛ كَأَنَّ الْمُنْتَجِعَ وُلِدَ دَاخِلَ الْعُبُودَةِ. لَكِنَّ السُّورَةَ تَمَزَّقُ الْغُلَافَ وَتَعِيدُهُ إِلَى جَذْوَرِهِ: مَاءٌ صُبَّ، وَأَرْضٌ شُقَّتْ، وَنَبَاتٌ أُخْرِجَ، وَأَنْعَامٌ رَعَتْهُ، وَأَيْدٍ حَمَلَتْهُ حَتَّى وَصَلَ.

الرَّحْمَةُ الَّتِي لَا تَنْسَى مَخْلُوقًا

فِي ذِكْرِ طَعَامِ الْأَنْعَامِ تَرْبِيَةٌ لِلْقَلْبِ عَلَى اتِّسَاعِ الرَّحْمَةِ. فَاللَّهُ لَمْ يَخْلُقِ الْإِنْسَانَ وَحْدَهُ فِي أَرْضٍ مَيِّتَةٍ، بَلْ أَقَامَ حَوْلَهُ عَالَمًا حَيًّا لَهُ حَاجَاتُهُ وَمَسَارَاتُهُ. وَالطَّيْرُ الَّذِي يَغْدُو خِمَاصًا وَيَعُودُ بَطَانًا، وَالدَّابَّةُ الَّتِي تَجِدُ مَرْعَاهَا، وَالْحَشْرَةُ الَّتِي تُرْزَقُ فِي مَوْضِعٍ لَا نَرَاهُ، كُلُّهَا شَوَاهِدٌ عَلَى سَعَةِ الرَّبُّوبِيَّةِ.

إِذَا كَانَ اللَّهُ يَذْكُرُ لِلْأَبِّ مَوْضِعًا فِي كِتَابِهِ، فَكَيْفَ يَضِيقُ قَلْبَ الْإِنْسَانِ بِالْحَيَوَانِ الضَّعِيفِ، أَوْ يَفْسُدُ مَوْطِنُهُ لِمَجْرَدِ الرِّيحِ، أَوْ يَتَعَاطَلُ مَعَ الطَّبِيعَةِ كَمَا لَوْ كَانَتْ مَخْزَنًا بِلا حَرَمَةٍ؟ لَا يَطْلُبُ

القرآن عبادة الطبيعة، بل يحررها من أن تكون صنماً أو غنيمةً سائبة؛ هي خلقٌ لله، مسخرٌ بحكمة، والإنسان مستخلفٌ في التعامل معه.

﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنعَامِكُمْ﴾: نعمةٌ مؤقتة لا وطنٌ أبدي

تختم الآيات المشهد بقوله: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنعَامِكُمْ﴾. والمتاع ما يُنتفع به زمنًا ثم ينقضي. لم يقل: خلوداً لكم، بل متاعاً، ليجمع بين الإذن بالانتفاع والتحذير من التعلق. كل هذه الحداثق والثمار والألوان نعمٌ حقيقية، لكنّها مؤقتة؛ خلقت لتعين الإنسان على السفر، لا ليظن أن محطة الطريق هي الوطن الأخير.

إنّ الإسلام لا يحارب متاع الدنيا في ذاته، بل يحارب أن يتحول المتاع إلى غاية. كلّوا من الطيبات، وتمتعوا بما أحلّ الله، لكن لا تجعلوا اللقمة أكبر من الرسالة التي تحفظ حياتكم لأجلها. الطعام وسيلةٌ لبقاء الجسد، والجسد وسيلةٌ للعبادة وال عمران؛ فإذا صارت الحياة كلها بحثاً عن الطعام واللذة، انقلبت الوسيلة سيئاً على صاحبها.

ولفظ ﴿لَّكُمْ وَلِأَنعَامِكُمْ﴾ يحمل مقارنةً موقظة: يشترك الإنسان والأنعام في الانتفاع المادي بالطعام، لكن الإنسان يميّز بقدرته على النظر والشكر ومعرفة المنعم. فإذا أكل ولم ينظر، وانتفع ولم يشكر، وحصر حياته في الإشباع، فقد أهدر المزية التي ترفعه.

الحيوان يأكل وفق فطرته ثم يمضي، ولا يكلف أن يسأل عن سرّ الماء والأرض؛ أما الإنسان فقد قيل له: ﴿فَلْيَنْظُرْ﴾. ليست إنسانيته في نوع الطعام الذي يأكله، بل في المعنى الذي يبصره خلاله، وفي الأخلاق التي تنشأ عن هذا البصر.

بين المتاع والابتلاء

كل نعمةٍ متاعٌ وامتحانٌ معاً. الطعام يسد الجوع، لكنه يمتحن الكسب والشكر والاعتدال؛ والمال يفتح أبواب القدرة، لكنه يكشف حقيقة القلب؛ والعلم ينير، لكنه قد ينفخ الأنا؛ والسلطان يتيح إقامة العدل، لكنه يغري بالاستعلاء.

ليست النعمة شهادةً آليّةً على رضا الله، ولا الحرمان دليلاً قاطعاً على سخطه. كلاهما ميدان تكليف: المعطى يُسأل عن شكره، والمحروم يُبتلى في صبره وسعيه، والمجتمع يُسأل لماذا بقي فيه محرومٌ مع وجود الفائض.

إنّ المستغني في مطلع السورة ربما رأى كثرة المتاع برهاناً على منزلته، فجاء هذا المقطع ليقول إن الطعام نفسه لم يصنعه، وإنه يشترك في أصل الانتفاع به مع أنعامه، وإن النعمة لا ترفعه إلا إذا قادت إلى الشكر. ما يملكه الإنسان لا يثبت فضله؛ إنما يكشف امتحانه.

اللّقة بوصفها موعظةً يومية

لو استيقظ معنى هذه الآيات في القلب، لتحوّلت المائدة إلى محراب شكرٍ لا إلى طقسٍ اعتيادي. ليس المطلوب خطبةً طويلةً عند كل طعام، بل حضورٌ بسيطٌ صادق: أن يبدأ باسم الله، ويأكل بيمينه، ويحمد عند الفراغ، ولا يعيب رزقاً، ولا يسرف، ولا ينسى جائعاً. إنّ السنن التي تحيط بالطعام ليست حركاتٍ شكلية؛ إنها تحفظ للنعمة معناها. التسمية تردّ البداية إلى الله، والحمد يردّ النهاية إليه، والاعتدال يمنع النعمة من أن تثقل أذى، والمشاركة تمنعها من أن تصنع أنانيةً مغلقة.

وما أجمل أن يتعلم الطفل أن الخبز لم يأت من المتجر وحده؛ وراءه مطرٌ وأرضٌ وبذرةٌ وفلاحٌ وعملٌ وفضل الله قبل كل شيء. إنّ هذه المعرفة تربي فيه الاحترام: فلا يرمي الطعام بسهولة، ولا يحتقر يداً زرعه، ولا يرى الامتلاء حقاً مضموناً.

وقد يكون من أعمق التربية أن يعرف الشعبان شيئاً عن تاريخ الجوع في العالم، لا ليعيش مذنباً لأنه أكل، بل مسؤولاً عن أن تكون نعمته باباً للعطاء. فالامتنان الذي لا يتحول إلى رحمة قد يبقى إحساساً جميلاً مغلقاً على صاحبه.

فساد الطعام وفساد الضمير

حين ينسى الإنسان أن الطعام رزقٌ من الله، قد يحوله إلى أداة ظلم: يحتكر أقوات الناس، ويرفع أسعارها استغلالاً، ويغشها، ويفسد الأرض طلباً لزيادة الربح، ويلقي الفائض بينما يبحث آخرون في النفايات عن لقمة. عندئذٍ لا تكون الأزمة في قلة الطعام وحدها، بل في فساد التوزيع والضمير.

لقد أثبت الله في الأرض ما يكفي من وجوه الرزق، لكن الإنسان قد يصنع الجوع وسط الوفرة؛ يحبس القمح في المخازن، أو يحول الأرض الخصبية إلى ميدان حرب، أو يترك المزارع للفقر بينما تتضخم أرباح الوسطاء. وهنا تصبح آية الطعام سؤالاً حضارياً: ماذا فعلتم بما أثبت الله؟

إنّ الإيمان بأن الله هو الرازق لا يعني البشر من مسؤولية إيصال الرزق، بل يضاعفها. فقد جعل بعضهم أسباباً لبعض، وأمرهم بالعدل والإطعام. ومن استخدم القدر لتبرير جوع المظلومين، فقد نسب إلى الله ما صنعتته قسوة الإنسان.

ليس من التقوى أن نقول للجائع: رزقك مكتوب، ثم نغلق خزائنا؛ فرزقه قد يكون مكتوباً فيها، وقد يكون فتح اليد هو الامتحان الذي كتب علينا نحن. الله يرزق عباده بوسائله، والسعيد من جعله الله طريقاً للرحمة لا جداراً دونها.

الطعام والبعث: المعنى المستتر في الحقل

جاء هذا المقطع بعد ذكر النشر، وقبل مشهد الصاخة، فليس حديث الطعام منفصلاً عن الآخرة. إنه دليلٌ على البعث من جهة، وزادٌ مؤقتٌ إلى يومه من جهة أخرى. الأرض التي تستشقق عن الحب ستستشقق عن الأجساد، والماء الذي يحيي النبات شاهدٌ على قدرة الله أن يحيي الموتى.

كل موسم حصادٍ تدريبٌ للبصيرة على الإيمان بالنشور. تُدفن الحبة وتغيب، ثم تعود في هيئةٍ أوسع؛ ويتحول اليابس إلى أخضر، والصلمت إلى حركة، والتراب إلى ألوان. ليس النبات إنساناً، ولا إنباته هو البعث نفسه، لكنه مثالٌ مشاهدٌ يقرب للعقل إمكان ما أنكره الجاحد. والذي يأكل من ثمار الإحياء مطالبٌ أن يستعدَّ لإحيائه هو. يا لها من مفارقة: أن يحمل الإنسان دليل بعثه إلى فمه كل يوم، ثم يعيش كأن لا بعث! لقد جعل الله الموعظة في طعامه حتى لا يدعي أن الحياة لم تترك له وقتاً للتأمل؛ فحتى حاجته الجسدية اليومية تقول له: الذي أطعمك من أرضٍ ميتة سيخرجك من الأرض حين يشاء.

من عبوسة الوجه إلى نعمة الطعام

تبدو المسافة بعيدةً بين مطلع السورة وحديث الطعام، لكنها في الحقيقة مسافةٌ داخل درسٍ واحد: درس النظر. في البداية اختلّ النظر إلى الإنسان، فقدم المستغني على الساعي؛ وهنا يُطلب من الإنسان أن يصحح نظره إلى النعمة، فلا يرى الطعام شيئاً ذاتياً منفصلاً عن خالقه.

من أخطأ في رؤية الإنسان قد يخطئ في رؤية الكون؛ لأنه ينظر بعين المصلحة والسطح. يرى الغني بما يمنحه، ويرى الطعام بما يملأ بطنه، ولا ينفذ إلى الخشية هناك ولا إلى الرحمة

هنا. أما القرآن فيعيد بناء العين: ترى القلب خلف الهيئة، والمنعم خلف النعمة، والبعث خلف الإنبات.

وقد يكون العمى الحقيقي هو أن تأكل ولا ترى، وأن تشبع ولا تشكر، وأن تمرّ بجوار الجائع فلا تنتبه. فالبصر الذي لا يقود إلى مسؤولية لم يبلغ كمال وظيفته، والعين التي تلتقط جمال المائدة ولا تلتقط انكسار المحتاج ما زالت بحاجة إلى تذكرة.

مائدة العالم ليست ملكاً لطائفة

قال تعالى: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنعَامِكُمْ﴾، والخطاب للناس؛ فالأصل أن خيرات الأرض عطية جعلها الله قواماً للحياة، لا غنيمةً يحتكرها الأقوى. وهذا لا يلغي الملكيات المشروعة والعمل والكسب، لكنه يجعلها محكومةً بحقوقٍ وحدودٍ أخلاقية، ويمنع الإنسان أن يتصرف في الرزق كأنه خلقه من العدم.

الأرض ليست إراثاً لجيلٍ واحدٍ يستهلك خصوبتها ثم يترك لمن بعده القحط. والماء ليس حقاً لمن يملك السلاح وحده، والحبوب ليست أرقاماً في المضاربات بينما يموت الناس. إن الاستخلاف يطلب توازناً بين الانتفاع والحفظ، وبين حق الفرد وحق الجماعة، وبين حاضر الإنسان ومستقبل أبنائه.

حين تُقرأ آيات الطعام بهذا الوعي، لا تبقى دعوةً فرديةً إلى الحمد وحده، بل تصبح أساساً لأخلاق الاقتصاد والبيئة والعدالة. فالقرآن ينتقل من قطرة المطر إلى بنية الضمير، ومن شق الأرض إلى سؤال توزيع الثمر، ومن مائدة الفرد إلى حق الأنعام والأجيال.

الكتابة على حبة قمح

لو أمكن للإنسان أن يقرأ التاريخ المكتوب على حبة قعج واحدة، لرأى سخاباً حمل الماء، وريحاً ساقته، وأرضاً استقبلته، وشمساً أمدته، وفلاحاً بذره، ويداً حصدته، ورحلةً نقلته، وناراً سوته، ثم يداً قدمته إليه. لكن وراء هذه السلسلة كلها إرادة الله التي خلقت العناصر وأقامت بينها العلاقات ومنحت الإنسان القدرة على العمل.

إنّ اللقمة لا تقول بلسانها: أنا من الله، لكنّ كل مرحلة في قصتها تشير إليه. المشكلة ليست في صمت الأشياء، بل في صخب النفس؛ فالعالم مملوءٌ بالشهادة، غير أن الإنسان قد يكون مشغولاً بنفسه إلى حدّ لا يسمعها.

ولهذا جاء الأمر حاسماً: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ﴾. ليس لأن الطعام مجهول الهيئة، بل لأن حقيقة محجوبة بالغفلة. انظر حتى لا تتحول النعمة إلى عادة، والعادة إلى حقّ متوهم، والحق المتوهم إلى جحود.

قبل أن تأتي الصاخة

يبدو مشهد الطعام هادئاً خصبياً: ماءٌ ينزل، وأرضٌ تنشق، وحبٌّ وعنبٌ وزيتونٌ ونخلٌ وحدائق وفاكهة. لكن السورة ستنتقل بعده مباشرةً إلى الصاخة؛ من صوت المطر إلى الصوت الذي يصخّ الأسماع، ومن الأرض التي تنشق عن النبات إلى عالمٍ تنشق فيه العلاقات، ومن الإنسان المجتمع مع أهله حول الطعام إلى الإنسان الفارّ من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه.

هذا الانتقال ليس قطعاً بين موضوعين، بل كشفٌ لحقيقة المتاع: كل ما ترونه من خضرةٍ وثمارٍ مهيأٌ لرحلتكم القصيرة، ثم يأتي يومٌ تنتهي فيه وظيفة المتاع ويبدأ الحساب. ليس

المطلوب أن تتركوا الحداثق، بل ألا تنسوا وأنتم فيها الصاخّة؛ وأن تجعلوا النعمة زاد شكرٍ قبل أن تصبح حجّة عليكم.

كم جلس إنسانٌ إلى مائدةٍ وخطط لغدٍ لم يبلغه، وكم ظنّ أن انتظام النعم عهدٌ بالدوام، ثم تغيّر كل شيءٍ في لحظة. لا تقول السورة ذلك لتفسد علينا فرح الطعام، بل لتطهّر الفرح من الوهم. استمتع، ولكن لا تغفل؛ احمد، ولا تتعلّق؛ خذ من المتاع ما يقيمك في الطريق، ولا تبني قلبك داخل شيءٍ كُتب عليه الزوال.

لقد صبّ الله الماء، وشق الأرض، وأنبث الحب، ونوّع الثمار، ومدّ للإنسان والأنعام مائدة الحياة؛ فلا ينبغي أن يكون جواب الإنسان مزيداً من الاستغناء. إنّ النعمة إذا لم تفتح في القلب باب الشكر، فتحت فيه باباً إلى الطغيان؛ وإذا لم تقربك اللقمة من المنعم، فقد تشبع جسدك وتترك روحك جائعة.

وما أقسى أن يمتلك الإنسان مائدةً ممتلئة وقلباً خالياً، وأن يتذوق كل ألوان الطعام ولا يتذوق حلاوة الحمد، وأن يعرف أسماء الثمار ولا يعرف اليد الرحيمة التي أخرجتها من ظلمة التراب. إنّ الجوع المؤلم ليس جوع المعدة وحدها؛ فقد تشبع المعدة ويبقى الإنسان يتضور افتقاراً إلى المعنى.

لهذا لم تقل الآية: فليأكل الإنسان من طعامه، فهو يأكل بطبعه، بل قالت: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾. الأكل تشترك فيه الأنعام، أما النظر الذي يصل النعمة بالمنعم، ويصل الشعب بالرحمة، ويصل الإنبات بالبعث، فهو الذي يعيد للإنسان إنسانيته.

فَاللّٰهُمَّ كَمَا أَطْعَمْتَ أَجْسَادَنَا مِنْ أَرْضِكَ، فَأَطْعِمْ أَرْوَاحَنَا مِنْ هَذَاكَ، وَكَمَا شَقَقْتَ التَّرَابَ
عَنِ الْحَبِّ، فَشَقِّ قَسْوَةَ قُلُوبِنَا عَنِ الشُّكْرِ، وَلَا تَجْعَلْ نِعْمَكَ حِجَابًا عَنْكَ، وَلَا تَجْعَلْ مَتَاعَ
الطَّرِيقِ يَنْسِينَا الْمَصِيرَ.

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ: حِينَ يَسْقُطُ الْعَالَمُ الَّذِي كَانَ يَحْمِينَا

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿وَأُمُّهُ وَأَبْنَاهُ﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ
﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾

كان المشهد قبل هذه الآيات رخيًّا هادئًا: ماءٌ ينزل من السماء، وأرضٌ تشقق عن الحب، وعنبٌ وزيتونٌ ونخل، وحدائقٌ غلبَ تظلل الإنسان، وفاكهةٌ تملأ اليد بألوان الحياة. ثم إذا بالسورة تنتقل في لفظةٍ واحدةٍ من هدوء الإنبات إلى هول الانقلاب، ومن صوت القطر على الأرض إلى صوتٍ يصحّ الأسماع، ومن متاع الحياة إلى الساعة التي تنفض عن المتاع كل أوهام الدوام: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾.

لم تقل الآية: إن جاءت؛ لأنّ مجيئها ليس احتمالاً معلّقاً، بل حقيقةٌ مستقبلَةٌ لا ريب فيها. قالت: ﴿إِذَا﴾، فوضعت الحدث في موضع اليقين، ثم عبرت بالماضي في ﴿جَاءَتِ﴾ على طريقة القرآن في تصوير المستقبل المحقق كأنه وقع وانتهى، حتى لا يبقى في القلب منفذٌ للتسويف. فالقيامة في حساب البشر غدٌ بعيد، لكنها في علم الله وعدٌ محسوم، وما كان آتياً لا محالة فهو قريبٌ وإن باعدت بيننا وبينه القرون.

وقد جاءت الفاء لتربط الصاخّة بكل ما سبق؛ فهذا المتاع لكم ولأنعامكم إلى أجل، فإذا جاءت الصاخّة انتهى فصل الانتفاع وبدأ فصل الحساب. فالثمرة التي كانت تنمولتقيم الجسد لم تعد ذات شأن، والأرض التي كانت تشق عن النبات تنفتح عن أجيال البشر،

والإنسان الذي انشغل بطعامه يقف الآن أمام ما قدّمه في أيام الشبع والجوع، والغنى والفقر، والقدرة والعجز.

إنّ الدنيا لم تكن كذبة، لكنها لم تكن الحقيقة كلها؛ كانت مرّاً جاداً، وامتحاناً حقيقياً، ومتاعاً محدوداً. والخطأ ليس أن يحب الإنسان ما أودع الله فيها من جمال، بل أن يمنحه صفة الخلود، وأن يبني عليه قلبه كما لو كان لن يغادره. تأتي الصاخّة فلا تبطل قيمة ما جرى، وإنما تكشف قيمته النهائية؛ تفرز الأعمال، وتردّ العوارض إلى أجماعها، وتظهر أيّ الأشياء كان زاداً، وأيها كان حملاً زائداً على الروح.

﴿الصَّاخَّةُ﴾: الصوت الذي لا يترك في السمع متّسعاً

اختارت السورة للقيامة اسماً واحداً شديد الإيقاع: ﴿الصَّاخَّةُ﴾؛ وهي الصيحة العظيمة التي تصنّع الأسماع، أي تصيبها بشدة صوتها وتبلغ منها مبلغاً لا يبقى معه انتباه إلى ما سواها. ليست صوتاً يدخل الأذن إلى جانب أصوات العالم، بل صوتٌ ينهي نظام العالم الذي عرفته الأذن.

لقد عاش الإنسان محاطاً بأصواتٍ لا تحصى: نداء الأهل، وضجيج السوق، وخطب الساسة، ومدح الناس وذمهم، وخصومات المجالس، وأصوات المطاعم والخواف داخل نفسه. وربما قضى عمره كله يستجيب لهذا الضجيج، يسرع حين يناديه المال، ويرتبك حين يتهده السلطان، ويفرح حين يعلو التصفيق لاسمه. ثم تأتي الصاخّة فتسكت كل تلك الأصوات دفعةً واحدة، فلا يبقى إلا نداء الحقيقة التي كان يؤجل الإصغاء إليها.

كم من صوتٍ بدا في الدنيا قادراً على صنع المصير، فإذا هو يومئذٍ عاجزٌ حتى عن حماية صاحبه! وكم من إنسانٍ عاش أسيراً لكلمة الناس عنه، فلما جاءت الصاخّة لم يجد واحداً

منهم يحمل عنه حسنةً أو يردّ عنه تبعة! إنها اللحظة التي تتحرر فيها الحقائق من الدعاية، ويسقط فيها سلطان الضوضاء.

والصاخّة لا تفاجئ الذين لم يسمعوها خبرها، فقد جاءت التذكرة قبلها، ووصفت الصحف، وكُشف أصل الإنسان، وذُكر بموته ونشره، وأُري الآيات في طعامه. لكنها تفاجئ الذين سمعوا ولم يتذكروا، وعرفوا ولم يستعدوا، وتعاملوا مع الإنذار كأنه أدبٌ مؤثّرٌ لا موعدٌ واقعي.

وهنا يكون وقعها مضاعفاً؛ فهي لا تكشف المستقبل وحده، بل تكشف حجم الغفلة الماضية. يدرك الإنسان أن كل تحذيرٍ سمعه كان رحمة، وأن الآيات التي مرّ بها كانت تمّدد إليه يد النجاة، لكنه عاملها كأصواتٍ يمكن تأجيلها. فلا تكون الحسرة لأنه لم يعرف فقط، بل لأنه عرف ولم يحوّل المعرفة إلى حياة.

صوتٌ يهدم حصانة العادة

من طبيعة الإنسان أن يعتاد الإنذار إذا تكرر؛ يسمع ذكر الموت حتى تصبح الكلمة مألوفاً، ويرى الجنائز حتى يغدو المشهد جزءاً من حركة المدينة، ويقرأ أخبار الكوارث ثم ينتقل إلى خبرٍ آخر. إنّ النفس تخلق حولها طبقةً من التبلد كي تستطيع مواصلة يومها، لكنها قد توسّع هذه الطبقة حتى تعزل نفسها عن الحقائق التي ينبغي أن توقظها.

تأتي كلمة ﴿الصَّاحَّةُ﴾ لتكسر هذه العادة. لا تسمح للقارئ أن يتعامل مع القيامة معنىً ذهنياً بارداً؛ إنها تصنع صوتاً داخل اللفظ نفسه، وتقرب الهول من السمع قبل أن يقع. وكأنّ الحروف تهزّ المنطقة التي نامت فيها التحذيرات القديمة.

لكن الغاية ليست تخويف الإنسان لذاته، ولا تحويل الإيمان إلى فزع دائم يعطله عن الحياة؛ بل تحريره من الغفلة التي تفسد حياته ومصيره. الخوف القرآني ليس حفرةً تسقط فيها الروح، بل جرسٌ يعيدها إلى الطريق. إنه خوفٌ يوقظ المسؤولية، ثم يفتحها على الرجاء والعمل.

ومن عرف الصاخة لم يزهد في إعمار الأرض، لكنه امتنع عن عبادتها؛ ولم يهجر أهله، لكنه أحبهم حباً يبني لهم ولاءً لله لا تعلقاً يعمي عن الحق؛ ولم يترك العمل، لكنه سأل عن الشيء الذي سيبقى من عمله حين يسقط صوته وتبقى نتيجته.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ﴾: الإنسان الذي تنخلع منه أدواره

تبدأ تفاصيل الهول بالفعل: ﴿يَفِرُّ﴾. لم يقل: يبتعد، أو ينصرف، بل يفر؛ والفرار حركةٌ يملؤها الخوف، يترك فيها الإنسان وراءه ما كان يتمسك به، ولا يلتفت إلا إلى نجاته. إنه انكشاف الغريزة حين يجاوز الهول طاقة التصور.

واختارت الآية كلمة ﴿الْمَرْءُ﴾، كأنها تجرد الإنسان من اسمه ولقبه ومكاته، وتعيده فرداً مسؤولاً. في الدنيا كان يُعرف ابناً وأخاً وزوجاً وأباً، وينتمي إلى أسرة وقبيلة وجماعة، ويحتمي بسلسلةٍ من الأسماء؛ أما هناك فيقف «المرء»، الإنسان المفرد الذي لا يحمل إلا عمله.

إن القيامة لا تنفي الروابط التي عاشها الناس، لكنها تنزع عنها وهم أنها تستطيع إنقاذهم من الله. لقد كانت القرابة ميداناً للرحمة والتكليف في الدنيا، لا حصانةً من الحساب في الآخرة؛ فرصةً لصنع الحسنات، لا وثيقةً تذيب المسؤولية الفردية.

كل دورٍ أدّاه الإنسان في الدنيا سيُسأل عنه، لكنه لن يستطيع أن يخبّئ داخله. لن يقول: كنت جزءًا من جماعةٍ فأعفوني من مسؤوليتي، أو ورثت هذا الخطأ عن آبائي، أو أطعت سادتي وكبرائي. الانتفاء يفسّر بعض السلوك، لكنه لا يحوّ اختيار صاحبه، ومن منح عقلًا وبلغته التذكرة صار مسؤولًا عن موضع قدمه.

الفرار من أحبّ الناس

الأشدّ هولًا ليس فعل الفرار وحده، بل الجهة التي يكون منها: إنّه لا يفرّ من عدوّ كان يخشاه، بل من أقرب الناس إليه. من الأخ والأم والأب والصاحبة والبنين؛ من الدائرة التي صنعت دفء حياته، ومن الوجوه التي كان يعود إليها إذا ضاقت به الدنيا.

حين يفرّ المرء من أعدائه لا نستغرب، أما حين يفرّ من أمه وأبيه وبنيه فإنّ ترتيب الفطرة نفسه يبدو كأنه قد انقلب تحت ثقل الهول. لا لأنّ الرحمة ألغيت من أصلها، بل لأنّ كل نفسٍ صارت مشغولةً بمصيرها، خائفةً من تبعاتها، عاجزةً عن حمل تبعه غيرها.

وهذه الصورة لا تريد أن تزرع الوحشة بين الناس في الدنيا، بل أن تضع العلاقات في موضعها الصحيح. أحبّ أهلك، وِرّ والديك، وارحم أبناءك، وأنس شريك حياتك، لكن لا تجعل أحداً منهم بديلاً عن الله، ولا تظنّ أن حبّهم يغنيك عن طاعته. إنّ العلاقة التي تنفصل عن الحق قد تتحول يوم القيامة إلى حسرة، أما العلاقة التي بُنيت على الإيمان فتكون من أسباب الاجتماع في رحمته.

الدنيا دارٌ نحتاج فيها بعضنا إلى بعض، والآخرة تكشف أن الحاجة النهائية لله وحده. ومن فهم ذلك لم يقلّ حبه للبشر، بل تطهّر؛ لم يعد يطلب منهم ما لا يملكون، ولم يحلّهم

مسؤولية خلاص روحه، ولم يعبدتهم بالخوف أو الرجاء. يحبهم بوصفهم هباتٍ ومسؤوليات، لا آلهةً صغيرةً يتوقف عليها وجوده.

﴿مِنْ أَخِيهِ﴾: أول الوجوه في دائرة الفرار

بدأت الآيات بالأخ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾. والأخ في الحياة موضع عضدٍ ونصرة، ورفيق الذاكرة الأولى، والشاهد على البيت الذي خرجا منه. به يقوى الإنسان في مواجهة العالم، ومنه يرجو أن يجد الظهر إذا اشتد الطريق.

لكنّ الصاخّة تجعل كل واحدٍ منهما عاجزاً عن صاحبه. ربما يفرّ خشية أن يطالبه بحق ضيعه، أو لأنه لا يريد أن يُسأل عن تقصيره، أو لمجرد أن الهول شغله بنفسه عن كل أحد. والمشهد يتسع لهذه المعاني من غير أن يحصر الفرار في سببٍ واحد؛ فالمقصود بلوغ الانشغال بالنفس غايته.

وإذا كان الأخ سيفرّ يوماً، فإنّ الآية لا تدعو إلى جفائه اليوم، بل إلى أداء حقه قبل أن يأتي زمنٌ لا يمكن فيه استدراك ما فات. كل علاقةٍ في الدنيا فرصةٌ مؤقتة؛ تستطيع الآن أن تصلح ما انكسر، وأن تعتذر، وأن تردّ الحق، وأن تصل الرحم. أما يوم الصاخّة فليس يوم إنشاء أعمالٍ جديدة، بل يوم ظهور ما أنشأناه.

كم من خصومةٍ بين إخوةٍ أكلت أعمارهم بسبب مالٍ سيتركونه جميعاً، أو كلمةٍ كان يمكن أن يغسلها اعتذار، أو ميراثٍ تحوّل من نعمةٍ إلى نارٍ في القلوب. ولو رأى المتخاصمون لحظة فرار أحدهم من الآخر، لصغرت في أعينهم أشياء كثيرةٌ كبّروها حتى حجبت عنهم معنى الأخوة.

لكنّ الصلة لا تعني التستر على ظلم الأخ أو نصرته على الباطل؛ فالنصرة الحقيقية أن تمنعه من الظلم كما تعينه إذا ظلم. والمحبة التي تصفق للخطأ ليست وفاءً، بل مشاركةٌ في المصير الذي ينبغي إنقاذه منه.

﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾: من الأصل الذي احتواه إلى الفرد الذي يقف وحده

ثم ترتفع درجة القرابة إلى الأم والأب: ﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾. الأم التي حملت ضعفه قبل أن يعرفه، والأب الذي كان سبباً في وجوده ورعايته؛ أصلان يرتبط بهما الإنسان في وجدانه وهويته، ويجد عندهما معنى البيت الأول.

قد يهرب الإنسان من كثيرٍ من الناس في الدنيا، لكنه يعود إلى أمه إذا انكسرت حصونه. صوتها يستدعي فيه الطفل القديم، وحنانها يفتح موضعاً لا تفتحه العلاقات الأخرى. فإذا قالت الآية إنه يفرّ منها، فقد بلغت في تصوير الهول موضعاً يكاد العقل يعجز عن تصويره.

والأب رمز السند والحماية، يحمل في ذاكرة الابن صورة القوة التي كانت تقف بينه وبين مخاوف العالم. لكن يوم القيامة لا يملك الأب لابنه نجاةً، ولا يملك الابن أن يعيد إلى أبيه ساعةً من العمل. تسقط الحماية الأرضية، ويبقى الرب الذي كان يحميها معاً وهما لا يشعران.

وهنا تصحح الآيات معنى برّ الوالدين؛ فبرهما ليس تأليهاً لإرادتهما، ولا طاعةً في معصية الله، بل إحسانٌ عظيمٌ داخل العبودية. لا يُطاع مخلوقٌ في معصية الخالق، وإن كان من أقرب الناس، لأنّ العلاقة التي تجعلك تعصي الله لن تجعلك يوم تقف بين يديه.

ومن الوفاء للوالدين ألا يكون حبهما محصوراً في خدمتهم الدنيوية، بل أن تحرص على ما ينفعهم في آخرتهم: دعاءٌ صادق، وصدقةٌ جارية، وقضاءٌ للحقوق، وعملٌ صالحٌ يمتد أثره

إليهم. فالرابطة المؤمنة لا تتكسر يوم الفرار، لكنها تعمل في الدنيا كي تنتقل من خوف الحساب إلى رجاء الاجتماع في رحمة الله.

الأم التي لا تستطيع حمل الخوف عن ولدها

في الدنيا تحاول الأم أن تحمل عن ابنها الألم، وتمنى لو أصابها المرض دونه، وربما سهرت ليلناً، وجاعت ليشبع. لكن يوم الصاخة يأتي بأمرٍ لا تستطيع الأم أن تأخذه عن ولدها؛ لأن المسؤولية الأخلاقية لا تُنقل كما يُنقل المتاع.

وهذا يربّي الإنسان على ألا يستغل رحمة والديه، أو يتكىء على صلاحهما، أو يظن أن انتسابه إلى بيتٍ صالح يغنيه عن عمله. قد يكون أبوك عالماً وأمك من الصالحات، لكنّ لهما عملهما ولك عملك. الإرث الروحي فرصة عظيمة، لكنه ليس صكّ نجاةٍ بلا استجابة.

كما أن فساد البيئة الأسرية لا يحكم على الإنسان بالهلاك؛ فقد يخرج المؤمن من بيتٍ يعاند الحق، ويخرج الجاحد من بيت نبوة. إن القرآن يعترف بأثر الأسرة، لكنه لا يحوّلها إلى قدرٍ يلغي الإرادة. يوم القيامة يقف المرء بما اختار في المساحة التي أعطيت له، ويحاسبه الله بعدلٍ يحيط بظروفه وقدرته وما بلغه من البيان.

﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ : رفيقة السرّ والطريق

ثم ذكر ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾، وهي زوجته التي صحبته في أدق تفاصيل الحياة، وعرفت من باطن أمره ما لم يعرفه الآخرون، وشاركت معه البيت والطعام والخوف والأمل. اختيار لفظ الصحابة يستحضر معنى الملازمة والقرب؛ ليست وجهاً عابراً، بل رفيقة أيامه.

ومع ذلك يفرّ منها. قد يخشى سؤال الحقوق التي ضيّعها، أو ينقطع عن كل أحدٍ لانشغاله بنفسه، أو تدرك هي من شأنها ما يجعلها لا تلتفت إليه. البيت الذي ظنه الإنسان حصناً نهائياً يفتح يومئذٍ وتظهر حقيقة أن الزوجين كانا مسافرين تحت سقفٍ واحد، لا مالكين للمصير.

إنّ هذه الآية تجعل الحياة الزوجية أمانةً أخروية، لا مجرد ترتيبٍ اجتماعي. الكلمة الجارحة، والظلم الخفي، والحق المالي، وحفظ السر، والرحمة عند الضعف؛ كل ذلك لا يضيع لأنّ الأبواب كانت مغلقةً والناس لم يروا. إنّ الله الذي رأى عبوسةً في وجهٍ كريم يرى ما يجري في البيوت حين لا يشهد أحد.

وإذا كان الزوجان سيفرّ أحدهما من الآخر، فإنّ أعظم ما يقدمه كل واحدٍ لصاحبه في الدنيا أن يعينه على ألا يخاف منه يوم القيامة. لا يحمله مظلمة، ولا يدفعه إلى معصية، ولا يجعل الحب ذريعةً للابتعاد عن الله. الحب الذي يريد لصاحبه لذة اللحظة ولو أفسد مصيره ليس حباً كاملاً؛ إنّهُ أنانيةٌ ترتدي ثوب العاطفة.

أما المودة المؤمنة فتفهم أن أجمل صحبةٍ هي التي تسير إلى الله؛ إذا ضعف أحدهما ذكره الآخر، وإذا طغت الدنيا على البيت أعاد ترتيب المعنى، وإذا جاء الرزق شكراً، وإذا جاء الضيق صبراً وتراحماً. عندها لا يكون البيت مهرباً من العبودية، بل موضعاً من مواضعها.

﴿وَبَنِيهِ﴾: الفرار من الامتداد الذي عاش لأجله

تبلغ الصورة ذروتها عند الأبناء: ﴿وَبَنِيهِ﴾. الأبناء هم الامتداد الذي يرى الإنسان فيه بقاء شيءٍ منه بعد رحيله؛ يبذل لأجلهم عمره، ويحمل نفسه مشقةً ليؤمن لهم المستقبل، ويفرح بنجاحهم كأنه نجاحه. فإذا فرّ منهم يوم الصاخّة، فقد وصل الهول إلى أقصى مواضع الفطرة.

في الدنيا قد يلقي الأب بنفسه في الخطر لينقذ ابنه، وقد تحمل الأم من أجله ما لا تحمله نفسها، لكن يوم القيامة ليس ميداناً تنقل فيه النتائج بالعاطفة؛ كل نفس بما كسبت رهينة. لا يستطيع الوالد أن يحو عن ابنه اختياراً أصر عليه، ولا يستطيع الابن أن يحمل عن أبيه ظلماً ارتكبه.

وهذا لا يجعل التربية عملاً عبثياً، بل يضاعف أهميتها؛ لأن الأب لا يملك إنقاذ ابنه يوم الحساب، فعليه أن يعينه اليوم على طريق النجاة. ليس أعظم الميراث بيت ومال وشهادة، مع أهمية ذلك، بل قلب عرف الله، وضمير يستحي من الظلم، وعقل يستطيع تمييز الحق من الضجيج.

كم ينشغل الآباء ببناء مستقبل مهني لأبنائهم، ثم يتركون مستقبلهم الأخلاقي للفراغ والشاشات والرفقة العابرة! يخافون عليهم من الفقر، ولا يخافون عليهم من خواء القلب؛ يعلمونهم كيف يكسبون، ولا يعلمونهم لماذا يعيشون. فإذا حصل الابن على أدوات النجاح وفقد المعنى الذي يضبطها، فقد منح قوة من غير بوصلة.

والتربية ليست قسر الأبناء على نسخة من آباءهم، بل غرس الأصول التي تجعلهم قادرين على لقاء الله بوعيم واختيارهم. لا يملك الوالد قلب ابنه، لكنه يملك أن يصنع له بيتاً يرى فيه الصدق حياً، والرحمة ممارسةً، والقرآن ميزاناً لا زينة على الرف.

ترتيب الفرار ودوائر القرب

سأقت الآيات الأخ، ثم الأم والأب، ثم صاحبة البنين؛ وكأن الدائرة تضيق شيئاً فشيئاً حتى تبلغ ألصق العلاقات بالإنسان. ليس المقصود بالضرورة ترتيب المحبة في كل نفس، فالقلوب تختلف، وإنما تصعيد صورة الهول عبر وجوه لا يتصور المرء عادةً أن يفر منها.

وكل اسم في القائمة يحمل تاريخاً كاملاً: الأخ يحمل الطفولة المشتركة، والأم تحمل رحم البداية، والأب يحمل النسب والسند، والصاحبة تحمل سرّ البيت، والبنون يحملون المستقبل. فكأنّ الإنسان يفرّ يومئذٍ من ماضيه وأصله وحاضره وامتداده؛ تنقطع عنه خرائط الزمن العائلي كلها، ولا يبقى إلا حاضر الحساب.

في الدنيا نعرف أنفسنا بهذه الروابط: أنا ابن فلان، وأخو فلان، وزوج فلانة، وأبو فلان. وهي تعريفاتٌ حقيقيةٌ جميلة، لكنها ليست أعمق تعريفٍ لنا. أعمق حقيقتنا أننا عباد الله، أفرادٌ خلقنا منه وإليه نرجع. فإذا أقمنا العلاقات داخل هذه العبودية صلحت، وإذا جعلناها بديلاً عنها انهارت عند أول امتحانٍ كبير.

لماذا الفرار؟

لم تفصل الآيات سبب الفرار، ليبقى المشهد واسعاً يجمع ألوان الخوف والانشغال والمطالبة بالحقوق. قد يفرّ المرء ممن يظن أنه سيطلبه بمظلمة، أو ممن قصّر في حقه، أو ممن يخشى أن يسأله حسنة، وقد يفرّ لأن شأن نفسه ملأ عليه وجوده كله.

وفي إيهام السبب دعوةً إلى أن يراجع الإنسان كل علاقاته؛ فلا يقول: أنا محسنٌ إلى أبنائي فلا تعينني الآية، أو لم أظلم أخي فلا أخاف. فاهول نفسه يكفي لانشغال كل نفس، ولو سلمت من بعض المظالم. وليس المقصود أن يعيش المؤمن في رعبٍ يفسد علاقاته، بل في يقظةٍ تمنعه من الاتكال عليها.

وكلها كان الإنسان أعدل في علاقاته، كان أرجى أن يلقي الله خفيفاً من حقوق العباد. فالعبادات التي بين العبد وربّه مبناها على عفو الله ورحمته، أما مظالم الناس فتححتاج إلى ردٍّ

أو مسامحة. ولذلك كان من الحكمة ألا يؤجل المرء إصلاح ما بينه وبينهم؛ فباب الاعتذار المفتوح اليوم قد يصبح غداً ملفاً في صحيفة الحساب.

كم من كلمة لا تحتاج إلا إلى شجاعة صغيرة: أخطأت، فسامحني. لكنّ الأنا تؤجلها حتى يكبر الجرح، وربما سبق الموت إلى أحد الطرفين. إنّ تذكّر الصاخة يعلم الإنسان ألا يترك ديون القلب معلقةً، ولا يستهين بأثر صنعه في روح غيره.

﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ﴾: الفردية التي لا تلغي عدل الظروف

بعد ذكر الفرار يأتي تعليل المشهد: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾. لكل فرد شأنه، وصحيفته، وموقفه، وما يكفيه من الهول ويشغله عن غيره. لا يضيع أحدٌ في الحشود، ولا يُعامل بوصفه رقماً داخل جماعة؛ فالعلم الإلهي يحيط به فرداً، كما لو لم يكن في الخلق سواه. إنّ العدالة البشرية تضطر أحياناً إلى التعميم؛ لأنها لا تحيط بكل التفاصيل والدوافع، أما عدل الله فيعرف القصة كاملة: ما فرض على الإنسان، وما قاومه، وما جهله حقيقةً، وما عرفه ثم حمده، وما استطاعه، وما عجز عنه، والجرح الذي أثر فيه، والفرصة التي جاءته. فردية الحساب ليست ظلاً للظروف، بل هي ضمان أن تُحسب الظروف كلها بدقة.

لن يُظلم إنسانٌ لأنه عاش في زمنٍ صعب، ولن تُمنح الصعوبة ترخيصاً مطلقاً للشر؛ بل يزن الله كل شيءٍ بعلمٍ لا يغيب عنه شيءٌ. وهذا يريح المؤمن من هوس الحكم النهائي على مصائر الناس؛ نحن نقوم الأفعال وفق الظاهر، ونحكي المجتمع من الظلم، لكن السرائر والحساب التفصيلي لله.

وقوله ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ﴾ يعيد الإنسان إلى مسؤوليته التي حاول أحياناً توزيعها على الجماعة. قد يقول: الجميع كانوا يفعلون، أو هكذا وجدت قومي، أو تلك كانت تعليمات السلطة. لكنّ

يوم القيامة لا يُسأل «الجميع» بوصفه كياناً غامضاً، بل يُسأل كل امرئ: ماذا فعلت أنت في المساحة التي كانت لك؟

ذوبان الفرد في الجماعة

من أخطر وسائل الهروب الأخلاقي أن يذيب الإنسان ضميره في الجماعة. يفعل ما يستكره وحده لأنه رأى الآخرين يفعلونه، ويشارك في الظلم لأن المسؤولية موزعة، ويكرر الكذبة لأن صوتها صار عاماً. يشعر أن كثرة المشاركين تخفف الجريمة، مع أن كل واحدٍ منهم سيأتي يوماً بشأنه.

الجماعة قد تعين الإنسان على الحق، وقد تمنحه شجاعة الخير، لكنها تصبح فتنةً حين يسلم لها وعيه. الإيمان لا يطلب منه أن يعيش منعزلاً، بل أن يبقى ضميره حياً وهو داخل المجتمع؛ ينتمي من غير أن يذوب، ويتعاون من غير أن يتخلى عن مسؤوليته.

والسورة التي بدأت بتصحیح ميزان مجلسٍ جماعي تنتهي برّد كل فردٍ إلى شأنه. في المجلس قد يخدع الإنسان موقعه بين الكبراء، أما في الحساب فلا كبراء ولا جمهور؛ هناك أفراد يقفون أمام رب العالمين.

﴿شأنٌ يغنيه﴾: الامتلاء بالذات بعد سقوط الاستغناء الزائف

في مطلع السورة كان هناك من استغنى، وفي هذا الموضع لكل امرئ شأنٌ يغنيه؛ يا لها من مقابلةٍ دقيقة. هناك استغناءٌ متوهمٌ في الدنيا جعل صاحبه يعرض عن التذكرة، وهنا انشغالٌ حقيقيٌّ في الآخرة يملأ الإنسان ويقطعه عن أقرب الناس.

في الدنيا ظنّ المستغني أنه لا يحتاج إلى الله، فإذا جاء اليوم الذي يحتاج فيه إلى الرحمة أكثر من أي وقت، لم يعد قادراً على الالتفات إلى سواه. الاستغناء الأول كان غروراً، أما الثاني فهو استغراق. وبينهما خسر الإنسان فرصة الافتقار النافع، فوقع في الانشغال الذي لا ينفعه.

لو عرف الإنسان في الدنيا فقره إلى الله، خفف الله عنه شأن الآخرة؛ ولو اشتغل هنا بما أمره، لرجأ أن يكون هناك من الوجوه المسفرة المستبشرة. أما من ملأته الدنيا حتى نسي الله، فسيمتلئ يوم القيامة بشأن لا يملك دفعه.

إنك لا تستطيع أن تعيش بلا شيء يملؤك. إما أن يملأ قلبك ذكر الله فيرتب ما سواه، وإما أن تملأه المطامع والعلاقات والخاوف حتى يتشظى بينها. فإذا جاء اليوم الآخر، سقطت الحشوات الزائفة وبقي الفراغ مكشوفاً، ثم ملأه الخوف من المصير.

الشأن الذي صنعناه في الخفاء

شأن الإنسان يوم القيامة ليس حادثاً غريباً هبط عليه بلا مقدمة، بل هو حصيلة شأنه في الدنيا. الصحيفة التي تشغله هناك كُتبت هنا، والعمل الذي يواجهه هناك اختاره هنا، والحقوق التي يخاف مطالبها تمت من مواقف حسبها صغيرة.

الآخرة لا تصنع للإنسان وجهاً لا علاقة له بحياته، بل تكشف الوجه الذي كان يبينه تحت أقنعة الدنيا. كل قرار أخلاقي يضيف خطأ إلى ملامحه القادمة، وكل توبة تحو أثراً، وكل ظلم يراكم ظلمة، حتى يأتي اليوم الذي تُرفع فيه الأقنعة ويظهر الحاصل النهائي.

ولهذا كانت تفاصيل الحياة مهمة؛ عبوسة الوجه، والالتفاتة، واستقبال الضعيف، واللقمة، والشكر، والحقوق داخل الأسرة. ليس الحساب على الشعارات الكبرى التي يعلنها الإنسان عن نفسه، بل على الحقيقة التي تجسدت في أفعاله.

العلاقات ليست منجاةً إلا إذا صارت طاعة

لا تريد السورة أن تقتلع الإنسان من أسرته، بل أن تنقذ الأسرة من أن تكون وثناً عاطفياً. فالقرآن الذي يصور الفرار هو نفسه الذي أمر بالبر والصلة والمودة والرحمة، وبشرّ باجتماع المؤمنين وذرياتهم في الجنة. ليست الرسالة: لا تثق بأحد؛ بل: لا تجعل أحداً في مقام الله.

العلاقة التي تقوم على الله لا تنتهي مع الصاخة إلى معناها المخيف وحده؛ يرجو أهلها أن يجمعهم الله بعد الحساب في دارٍ لا فراق فيها. أما العلاقة التي قامت على المعصية أو العصية العمياء فقد تنقلب عداوةً وتلاوماً؛ لأن كل طرفٍ يكشف أن صاحبه لم ينقذه، بل ربما زاد حمله.

من هنا كان الحب مسؤوليةً لا شعوراً فقط. أن تحب إنساناً يعني ألا تعينه على خسارة نفسه، وألا تسكت عن هلاكه لأن النصيحة قد تزججه، وألا تجعله وسيلةً لشهوتك أو صورتك. الحب الذي لا يرى الآخرة يرى جزءاً صغيراً من المحبوب، وينسى مصيره الأبدي.

والوالد الذي يوفر لابنه كل شيءٍ إلا الهداية لم يعطه كل شيءٍ، والزوج الذي يحمي بيته مادياً ويترك الظلم يأكله من الداخل لم يحمه، والأخ الذي ينصر أخاه ظالماً يدفعه إلى موقفٍ سيفر منه فيه.

لا يحمل أحدٌ عن أحد

يبني هذا المشهد أحد أصول المسؤولية في الإسلام: لا يحمل أحدٌ وزر أحد، ولا تنفع الأنساب مع فساد العمل، ولا تكون القرابة واسطةً تلغي العدل. وهذا يحرر الدين من الطبقيّة الروحية ومن وهم الأسر المقدسة التي تملك النجاة بالنسب.

كان الجاهليون يعظمون الأنساب، وربما حسب الإنسان أن قومه يحفظونه في كل موطن، فجاء القرآن ليعلن أن الفرد يقف بعمله. حتى الانتساب إلى نبيٍّ لا ينفع مع الكفر، كما لم ينفع ابن نوح عليه السلام، ولا تنقص الغربة في بيتٍ فاسدٍ من قيمة المؤمن، كما لم تنقص امرأة فرعون.

وهذا لا ينفي الشفاعة الثابتة بإذن الله ورضاه، لكنها ليست سلطةً مستقلةً يملكها أحدٌ في مواجهة حكمه، ولا باباً للفوضى الأخلاقية. الشفاعة كلها لله، تقع لمن ارتضى، وتظهر رحمته وسيادته، لا نفوذ المخلوق خارج إرادته.

إنّ توحيد الله في ذلك اليوم يكتمل في الوعي: لا أمّ، ولا أب، ولا زوج، ولا ولد يملك المصير، كلهم عبيدٌ واقفون بين يدي المالك الحق. ومن وحد الله في الدنيا اطمأن إلى أن الرحمة التي يحتاجها هناك ليست بيد عاجزٍ مثله، بل بيد أرحم الراحمين.

الهول الذي يوقظ ولا يقنط

قد يثقل هذا المشهد على القلب، لكنّه ليس دعوةً إلى القنوط؛ فالسورة ستذكر بعده مباشرةً وجوهاً مسفرةً ضاحكةً مستبشرة. الصاخة ليست هولاً واحداً على الجميع؛ إنها يوم عدلٍ يختلف فيه حال الناس باختلاف ما قدّموا ورحمة الله بهم.

إنَّ القرآنَ حينَ يخوِّفُ لا يغلقُ أبوابَ النجاةِ، بل يفتحها الآن. ما دمتَ تقرأ وصفَ الصاخَّةِ قبل وقوعها، فقد وصلتكَ الرحمةُ في صورة إنذار. الخطر ليس أن تخاف، بل أن تسمع فلا تتغير، وأن تتحول رهبة الآيات إلى انفعالٍ عابرٍ ينتهي بانتهاء التلاوة.

كل آيةٍ عن القيامة تقول لك ضمناً: ما زال لديك وقت. أصلح شأنك قبل أن يصير شأنًا يغنيك، وردَّ الحقوق قبل أن تفرَّ من أصحابها، وأحسن إلى أهلِكَ قبل أن تنقطع فرصة الإحسان، وخفف من علائقك ما جعلك تعصي الله من أجلها.

إنَّ التوبةَ قادرةٌ بإذن الله على أن تغيِّرَ المستقبلَ الذي تخافه. ليست الماضي نفسه، لكنها تعيد تفسيره وتحول الندم إلى عبادة، وتحوِّل الذنب إذا صدقت واستوفت حقوق العباد. الله لا يريك الصاخَّةَ ليقول إنك هالكٌ حتماً، بل ليقول: لا تمضِ إليها نائماً.

ما الذي يبقى حين يسقط الجميع؟

حين يفرَّ الأخ والأم والأب والصاحبة والبنون، ما الذي يبقى؟ يبقى الله الذي كان معك قبل أن تعرفهم، والذي وهبك إياهم، والذي سيحكم بينك وبينهم. ويبقى عملك، وصدقك، ورحمته التي لا نجاة إلا بها.

هذه الحقيقة لا تجعل الإنسان وحيداً في الدنيا، بل تمنحه مركزاً ثابتاً لا تهزه تقلبات العلاقات. قد يفقد قريباً، أو يخذله صديق، أو يموت من كان يظن أن الحياة لا تستقيم بدونه، فيحزن - والحزن حقٌّ إنساني - لكنه لا ينهار وجودياً، لأنه يعرف أن الأصل الذي يحمل حياته لم يغب.

كل علاقةٍ بشريةٍ جميلةٌ معرضةٌ للانقطاع، لا لفسادها، بل لطبيعتها المخلوقة. من طلب منها الدوام المطلق ظلّ لها وظلم نفسه، ومن تلقّاها عطيةً من الله أحبّها بامتنان، وعرف كيف يتركها حين يستردّ الله وديعته.

إنّ التوحيد ليس فكرةً عن عدد الآلهة فحسب، بل ترتيبٌ عميقٌ لمراكز الاعتماد في القلب. أن تحبّ الناس ولا تعبدهم، وأن تحتاج إليهم من غير أن تنسى افتقارهم، وأن تعطيهم حقهم من غير أن تمنحهم حق الله.

من صخب الدنيا إلى صاخّة الآخرة

قضى الإنسان عمره يفرّ من أشياء كثيرة: من الفقر، والمرض، والوحدة، وكلام الناس، وفقدان المكانة. وقد يرتكب الحرام ليتجنب خوفاً صغيراً، ثم لا يستعد للخوف الأكبر. تركض قدماه في الدنيا بعيداً عن الخسارة، لكنه لا يسأل: إلى أين يقودني هذا الركض؟ تأتي السورة لتعيد تعريف النجاة. ليست النجاة أن تحافظ على كل ما تملك حتى الموت؛ فالموت نفسه سينزعه منك. وليست أن يظل الناس راضين عنك؛ فهم سيفرون. النجاة أن تصل إلى اليوم الذي يفرّ فيه الجميع، وقد تعلّق قلبك بمن لا يفرّ منك، وأدّيت ما استطعت من أمره.

كان ابن أم مكتوم في مطلع السورة يأتي يسعي، والناس هنا يفرون. هناك سعيٌ نحو الذكرى ينقذ صاحبه، وهنا فرارٌ لا ينقذ إلا من أتى الله بقلب سليم. وبين السعي والفرار تُكتب قصة الإنسان: إلى ماذا تحرك في الدنيا، وممّ سيهرب في الآخرة؟

من سعى إلى الله هنا، رجونا له أن يأمن هناك؛ ومن فرّ من التذكرة هنا، لن يجد يوم الصاخّة موضعاً يفرّ إليه. تلك هي المفارقة التي تبنيها السورة: قد يبدو طالب الهدى في الدنيا

هو المحتاج الضعيف، لكنه في الحقيقة يصنع لنفسه أماناً؛ وقد يبدو المستغني قوياً محاطاً بأهله وجاهه، لكنه يهين وحدته الكبرى.

الوحدة أمام المرأة الأخيرة

القيامه امرأة لا يشارك الإنسان في الوقوف أمامها أحد. تُسقط المقارنات التي عاش بها: لست أفضل لأن غيرك أسوأ، ولا تنجو لأن جماعتك كبيرة، ولا تُعفى لأن الناس جميعاً قصّروا. السؤال ليس: كيف كنت بينهم؟ بل: كيف كنت مع الله فيما منحك وكلفك؟

وقد تكون المقارنة بالآخرين من أعظم حجب التزكية؛ يطمئن الإنسان إلى عيوبه لأنه وجد من هو أشدّ عيباً، ويغفل عن فرصه لأنه رأى المحروم، ويبرر قسوته لأن غيره أقسى. لكن لكل امرئ شأنه، وحسابك لا يبنى على مقدار سقوط الآخرين.

والتححرر من المقارنة لا يعني أن تتوقف عن الاقتداء والتعلم، بل أن تدرك أن ميدانك الحقيقي هو الأمانة التي بين يديك. قد لا تكون مطالباً بما أُعطي غيرك من قدرة، لكنك مسؤولٌ عما أُعطيت. وقد يكون عملك صغيراً في أعين الناس، لكنه كامل الصدق داخل استطاعتك، فيسبق أعمالاً ضخمةً أفسدها الرياء.

الصاخرة في ضمير الحاضر

لا ينبغي أن تبقى الصاخرة مؤجلةً في وعينا حتى تقع؛ ينبغي أن يدخل معناها في قراراتنا اليوم. قبل أن تنظم أحداً، تذكر اليوم الذي قد تفرّ فيه منه. وقبل أن تعصي الله لإرضاء قريب، تذكر أنه لن يحمل عنك تبعه. وقبل أن تهدر عمرك في بناء صورة اجتماعية، تذكر أن الصور كلها ستسقط ويبقى شأنك.

إنَّ استحضار الآخرة ليس تعطيلاً للحاضر، بل منحه بوصلة. حين يعرف الإنسان أن لكلمته امتداداً بعد الموت، يصبح أحرص عليها؛ وحين يعلم أن علاقاته ستعرض على العدل الإلهي، يصبح أرحم وأصدق؛ وحين يدرك أن المتاع سينتهي، لا يبيعه ضميره.

من نسي الصاخّة ضخم الأشياء الصغيرة حتى عبدها، ومن تذكرها لم ير الدنيا تافهة، بل رآها قصيرة وثمينة: قصيرة فلا تستحق أن يعصي الله لأجلها، وثمينة لأن كل لحظة فيها تستطيع أن تصنع أثراً أبدياً.

إنَّ الآخرة لا تسلب اليوم معناه؛ هي التي تمنحه المعنى الكامل. فالابتسامة في وجه الضعيف قد تُنسى بين الناس، لكنها لا تضيع؛ والظلم الذي وقع خلف الأبواب قد ينجو من المحكمة، لكنه لا يسقط من الصحيفة؛ والدمعة التي خرجت خشيةً في ظلام الليل قد لا يراها أحد، لكنها تُرى حيث تُوزن الوجوه.

وهكذا تتركنا الآيات أمام أعظم عزلةٍ وأعظم أمل: عزلة المسؤولية التي لا يحملها عنا أقرب قريب، وأمل الرحمة التي فتحت لنا باب التذكّر قبل أن تأتي الصاخّة. ما زال الأخ قريباً، والأم والأب في متناول البر، والصاحبة موضع المودة، والبنون قابلين للهداية والتربية؛ وما زال في العمر متسعٌ لأن نصنع من هذه العلاقات جسوراً إلى الله، قبل أن يأتي يومٌ تتحول فيه كل نفسٍ إلى شأنٍ يغنيها.

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ: حِينَ يَظْهَرُ تَارِيخُ الْقَلْبِ عَلَى الْمَلَامِ

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۖ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾

تعود السورة في خاتمتها إلى الوجه الذي بدأت منه؛ لكنها لا تعود إلى عبوسة عابرة تقع في لحظة، بل إلى وجوه صار ظاهرها ترجمة نهائية لما استقر في القلوب، وحملت ملامحها خلاصة الطريق كله. بدأت السورة بقول الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾، وانتهت بوجوه مسفرة ضاحكة مستبشرة، ووجوه عليها غبرة ترهقها قترة. وكأن السورة من أولها إلى آخرها رحلة في صناعة الوجه الذي سيقابل الإنسان به ربه.

في الدنيا يستطيع المرء أن يدير ملامحه، وأن يخفي قلقه بابتسامة، وأن يستر خبثه بوقار مصطنع، وأن يعرض نفسه في الصورة التي يريدها الناس أن يروها. الوجه الدنيوي قابل للتمثيل؛ قد يقول ما لا يقوله القلب، وقد يغدو قناعاً اجتماعياً متقناً. أما يوم الصاخة فتتوقف صناعة الأقنعة، ويصير الوجه صحيفة ظاهرة لا تحتاج إلى قراءة خفية.

هناك تخرج السرائر من مستودعاتها، وتحول المعاني إلى ملامح؛ الإيمان نور، والطمأنينة إسفار، والبشرى ضحك واستبشار، والكفر غبرة، والفجور ظلمة تحاصر الوجه. لن يكون الشكل يومئذ منفصلاً عن الحقيقة، بل يصبح الظاهر صادقاً مع الباطن صدقاً كاملاً.

إنَّ الجسد في الآخرة لا يقف محايداً أمام تاريخ الروح؛ اليد تشهد، والجلد ينطق، والوجه يحمل الأثر. وكل ما كان الإنسان يظنه شيئاً خفياً بينه وبين نفسه يظهر في الهيئة التي يقف بها. فالآخرة ليست مكاناً تنتقل إليه وحده، بل حقيقةٌ تكشف فيها الصورة التي صنعناها لأنفسنا خلال العمر.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾: اختصار الإنسان في موضع هويته

لم تقل الآيات: أناسٌ مسرورون وأناسٌ محزونون، بل قالت: ﴿وَجُوهٌ﴾؛ لأن الوجه هو موضع التعرف، وملتقى الحواس، ومرآة الانفعالات، وأول ما يستقبل به الإنسان العالم ويستقبله العالم به. إذا ذُكر الوجه، حضر الشخص كله في الوعي.

وقد عبرت السورة بالوجوه لتجسد المعنى الذي لا تكفي الكلمات المجردة لبيانها. فالسرور ليس خبراً داخلياً فحسب؛ إنه نورٌ يفيض على الملامح. والخوف ليس فكرةً تدور في العقل وحده؛ إنه غبارٌ وظلمةٌ تكتسح الوجه.

في الدنيا قد يضطرب باطن الإنسان ويبقى ظاهره ثابتاً، لكن القيامة تلغي هذه المسافة. يظهر كل شيء على حقيقته، فلا ينفع صاحب الوجه المظلم أن يقول: أنا بخير، ولا يحتاج صاحب الوجه المسفر إلى أن يشرح نجاته؛ فالمصير مكتوبٌ عليه كتابةً لا حروف فيها.

والوجه الذي عظمه الإنسان لجماله سيقف يوماً بقيمةٍ أخرى لا تصنعها ملامح الخلق، بل أعمال الروح. ليست القضية كيف كان شكل وجهك في أعين الناس، بل ماذا صنعت خلفه من صدقٍ ورحمةٍ وخشية. فكم من وجهٍ بسيطٍ لم تتعلق به أنظار الأرض سيكون يومئذٍ مسفراً، وكم من وجهٍ عاش تحت الأضواء ستغشاه ظلمةٌ لا يبددها إعجاب البشر القديم.

الجمال الذي تصنعه العبودية

إنَّ القرآن يعيد تعريف الجمال في المشهد الأخير. الجمال الحقيقي ليس تناسق القسمات وحده، بل النور الذي يهبه الله لمن آمن وعمل صالحاً. قد يذبل الجسد في الدنيا بالمرض والسنين، لكنَّ القلب يستطيع أن يزداد جمالاً كلما اقترب من الله؛ وحين تسقط قشور العمر يظهر الجمال الذي لم تستطع الشيخوخة أن تمسه.

كم ينفق الناس من أعمارهم في حفظ شباب الوجه، ولا ينفقون مثل ذلك في حفظ نور القلب! يخافون التجاعيد التي يكتبها الزمن، ولا يخافون الخطوط التي يكتبها الحسد والكبر والظلم في الداخل. مع أنَّ ما يفعله الزمن بالجسد ينتهي بانتائه، أما ما تفعله الإرادة بالروح فيعبر معها إلى الآخرة.

ليس في الاعتناء بالمظهر المباح مذمة، فالله جميلٌ يحبُّ الجمال، والنظافة والتجمل من محاسن الفطرة؛ لكن الخلل أن يصبح الوجه مشروع العمر الأكبر، وأن تُهمَل الروح التي ستحدد ملامحه النهائية. الجسد أمانةٌ نعتني بها، لا صنمٌ نستهلك أعمارنا في محاولة إنقاذه من قانون الفناء.

﴿مُسْفِرَةٌ﴾: الصبح الذي يطلع من الوجوه

الإسفار هو الإضاءة والانكشاف، كما يُسفر الصبح حين يزيح الظلام ويكشف الأشياء. ووصف الوجوه بأنها ﴿مُسْفِرَةٌ﴾ يجعلها كأنها صباحاتٌ بشرية، خرجت من ليل المحشر تحمل ضوء النجاة. ليس النور واقعاً عليها من الخارج وحده، بل يبدو كأنه يفيض من حقيقتها.

إنَّ نور الإيمان حين ينكشف أثره، ونور السجود الذي لم يصفق له الناس، ونور الصبر الذي ظلَّ حبيس القلب، ونور التوبة التي غسلت ماضيها بالندم. كم من أعمالٍ كانت في الدنيا صغيرةً في أعين الناس، لكنها اجتمعت في الآخرة حتى صنعت على الوجه فجراً!

قد يكون صاحب ذلك الوجه عاش مغموراً، لا تُلْتَقَط له الصور، ولا تتناقل المجالس اسمه، لكنه كان معروفاً في مواطن الإخلاص: أطعم حين لم يره أحد، وعفا وهو قادر، وكفَّ لسانه حين استثارته الخصومة، ونهض آخر الليل يحمل قلبه المكسور إلى الله. كل ذلك الضوء كان يتكوّن في الخفاء، حتى جاء اليوم الذي أذن له أن يسفر.

وقد يكون في إسفار الوجوه أثر الضوء والسجود والطاعة، وأثر الرحمة التي عامل بها الإنسان الخلق. فالوجه الذي لم يعبس تكبراً في وجوه الضعفاء، والذي لان للسائل، وأشرق بالبشاشة في طريق الناس، يرجو صاحبه أن يشرق يوماً بنورٍ من الله.

لكنّ هذا النور ليس ثمناً حسابياً يستحقه الإنسان استقلالاً عن رحمة ربه؛ فالأعمال أسبابٌ للنجاة، أما التوفيق إليها وقبولها والفضل في الجزاء فن الله. لو عامل الله العبد بعدله المحض من غير فضله ما أدّى شكر نعمةٍ واحدة، لكنّه سبحانه يضاعف القليل، ويغفر الكثير، ويدخل عباده الجنة برحمته.

إسفارٌ بعد صاخّة

جاءت الوجوه المسفرة بعد ذكر الصاخّة وفرار الأقربين؛ لتدل على أن الهول ليس مصيراً نهائياً لكل أحد. قد يهتز الكون كله، وتقطع الروابط، ومع ذلك يثبت نورٌ على بعض الوجوه. ليس أنهم ناشئاً من جهلٍ بالموقف، بل من بشارة الله التي غمرت قلوبهم بعد خوفها.

وهنا يتعلم المؤمن أن النجاة لا تعني غياب الشدائد، بل أن يحمل في داخلها نوراً من الله. قد يمرّ الصالح بأهوال القيامة، لكنه لا يُترك لنفسه؛ ومن كان مع الله في الدنيا كان الله معه بلطفه ورحمته في الآخرة.

إنّ إسفار الوجوه يفتح باب الرجاء بعد المشهد المرعب؛ فالسورة لا تريد أن تسجن القلب في الخوف، بل أن تدفعه إلى العمل الذي يصنع له وجهاً منيراً. الخوف الذي لا يقود إلى رجاءٍ قد يتحول إلى يأس، والرجاء الذي لا يوقظ عملاً قد يتحول إلى أُمّية؛ أما القرآن فيجمعهما: صاخّةٌ توقظ، ووجوهٌ مسفرةٌ تدعو إلى الأمل.

﴿ضاحِكَةٌ﴾: الضحكة التي جاءت بعد طول الانتظار

لم تكتفِ الآية بالإسفار، بل قالت: ﴿ضاحِكَةٌ﴾. إنّه ضحك النجاة بعد الخوف، وضحك اليقين بعد زمن الغيب، وضحك الوصول بعد مشقة الطريق. ليس ضحك غفلةٍ ولا سخرية، بل فرحٌ طاهرٌ لا يخالطه قلقٌ من الزوال.

في الدنيا لا يصفو ضحك الإنسان تماماً؛ ففي خلفية كل فرح احتمال فقد، وفي كل لقاء بذرة فراق، وفي كل صحةٍ خوف المرض، وفي كل نجاح قلق على بقاءه. حتى أجمل اللحظات تمرّ سريعاً، ويعرف القلب في مكانٍ بعيدٍ منها أنها لن تدوم.

أما ضحك الآخرة فهو ضحكٌ تحرر من الزمن الذي كان يهدد الأشياء. لا موت بعده، ولا فراق، ولا مرض، ولا انقلاب حبيب، ولا ضياع نعمة. إنه الفرح الذي لا يقف المستقبل له بالمرصاد.

وما أعمق المقابلة بين العبوسة الأولى والضحك الأخير! العبوسة وقعت في لحظة انشغال بدعوة المستغني، أما الضحك فهو ثمرة الاستجابة للتذكرة. كأنّ السورة تقول: من أراد وجهاً

ضاحكاً هناك فليتعلم هنا كيف يفتح وجهه للحق وللخلق، وكيف يطهر قلبه من استعلاءٍ يجعل ملامحه تضيق بالضعفاء.

والتبسم في وجه الناس ليس أمراً هامشياً؛ إنه صدقةٌ لأنه يمنح الآخر إقراراً صامتاً بوجوده وكرامته. قد لا تملك أن تحل مشكلته، لكنك تستطيع ألا تزيدها بوجهٍ مغلق. والمقصود ليس ابتسامةً مصطنعةً تلغي جديّة الألم، بل ملامح رحيمّة لا تستخدم العيوس سلاحاً للاستعلاء.

حين يصبح الفرح عبادةً مؤجلةً

ربما عاش بعض أصحاب الوجوه الضاحكة حياةً شديدة البلاء، ويكوا طويلاً في الدنيا، وفقدوا أحبةً وأوطاناً وأسباباً، لكنهم لم يفقدوا الله. لم تكن دموعهم علامة سخط، بل أثر قلبٍ بشريٍّ حمل حزنه إلى ربه ولم يقطع به الطريق.

إنّ القرآن لا يعد المؤمن بحياةٍ لا بكاء فيها، وإنما يعده ألا يكون البكاء خاتمة قصته. قد تطول الليلة، لكن الصباح محفوظ، وقد يمتلئ الطريق بالألم، لكن الوجه الذي حفظ إيمانه يرجو إسفاراً لا ينطفئ.

كم من دمةٍ أخفاها صاحبها عن الناس حفظاً لكرامته، وراها الله؛ وكم من ابتسامةٍ صنعها للآخرين بينما كان قلبه جريحاً، فكانت صدقةً لا يعلم قدرها إلا الله. يوم القيامة لا تضيع هذه التفاصيل، بل قد تكون من المواد التي يصنع منها الضحك الأبدي.

﴿مُسْتَبَشِّرَةٌ﴾: فرحٌ له سببٌ يأتي من أمامه

الاستبشار أعمق من الضحك؛ فهو تلقى البشرى والفرح بما ينتظره الإنسان. قد يضحك المرء للحظة عابرة، أما المستبشر فيحمل في قلبه خبراً جميلاً عن مستقبله. هذه الوجوه لا تفرح لأنها نجت من هولٍ فحسب، بل لأنها ترى أمامها ما وعد الله: الرحمة والرضوان والجنة والقرب والأمان.

في الدنيا كان المؤمن يؤمن بالغيب؛ يصلي لرب لا يراه، ويصبر على وعدٍ لم يقع أمام عينه، ويترك شهوةً عاجلةً رجاء نعيمٍ مؤجل. أما هناك فقد صار الغيب شهادة، والوعد مشهداً، والصبر باباً مفتوحاً على الجزاء.

إنه يوم انكشاف صدق الله للعبد، مع أن المؤمن لم يشك في صدقه، لكن فرقاً بين يقين الخبر وفرحة المعاينة. كان يقرأ عن الجنة، فإذا أبوابها أمامه؛ وكان يرجو المغفرة، فإذا البشرى تحو خوفه؛ وكان يناجي ربه في الليل، فإذا رضوان الله أعظم من كل ما تخيل.

والاستبشار يدل على حركة الفرح من الداخل إلى الوجه؛ كأن البشرى أكبر من أن يحتفظ بها القلب وحده، فتفيض على الملامح. هذا هو الصدق الكامل بين الباطن والظاهر: قلبٌ مبشِّر، ووجهٌ مستبشر.

بأي شيء تستبشر الوجه؟

تستبشر أولاً برحمة الله ورضاه، فليس في الجنة نعيمٌ يعدل أن يعلم العبد أن ربه رضي عنه. وتستبشر بانتفاء الخوف؛ فلا ذنب يطاردها، ولا مستقبل مجهول، ولا موت ينتظرها. وتستبشر ببقاء من صلح من أهلها بعد الفرار المؤقت، وردّ المظالم، وظهور عدل الله، وانتهاء رحلة الصراع مع النفس والباطل.

وتستبشر بأن شيئاً من الخير لم يضع. الكلمة التي لم يسمعها إلا قلبٌ واحد، والصدقة التي نسيها صاحبها، والصبر الذي لم يقدره الناس، والحق الذي خسره في محكمة الأرض؛ كل ذلك حاضرٌ عند الله. إنّ الآخرة لا تكافئ النتائج الظاهرة وحدها، بل النيات والجهود والصدق في حدود الاستطاعة.

قد يظن إنسان أن حياته لم تكن كبيرة؛ لم يغيّر التاريخ، ولم يعرفه الناس، ولم يترك مؤسساتٍ تحمل اسمه. لكنه حمل أمانته الصغيرة بصدق، وربّى ولداً على الخير، وكفّ أذى، وأخلص في عمله، وحفظ قلبه من اليأس. وفي ميزان الله قد تكون هذه السيرة أوسع من ضجيج عظماء ملؤوا الصحف وأفرغوا الأرواح.

الوجه التي نبت نورها في الدنيا

ليس نور الآخرة منفصلاً تماماً عن بدايته الدنيوية. للإيمان نورٌ يترك أثره في السكينة والرحمة والصدق، وإن لم يكن نوراً حسيّاً يراه كل أحد. قد ترى وجه إنسانٍ أنهكته الحياة، لكن فيه طمأنينةٌ لا يمنحها الجمال، وترى آخر مكتمل الهيئة لكن القلق يأكل ملامحه.

الوجه المؤمن ليس مطالباً بأن يضحك دائماً؛ فقد حزن الأنبياء وبكوا، والابتسام القسري قد يكون ظلماً للشاعر. المقصود نور الوجه بمعنى أعمق: ألا يسكنه احتقار الناس، وألا تتخذه النفس سلاحاً لإذلالهم، وأن تبقى فيه إنسانيةٌ حتى عند الحزن والصرامة.

وقد يعبر النور من الوجه في صورة إنصافٍ صادق، أو حياءٍ من الله، أو رحمةٍ بضعيف، أو ثباتٍ عند الفتنة. ليس جمال الوجه في كثرة الضحك وحده، بل في صدق ما تعبّر عنه.

﴿وَوَجْهٌ يُؤْمِنُ عَلَيْهِ غَبْرَةٌ﴾: حين يغطي الجحود صورة الإنسان

بعد مشهد الإسفار والضحك والاستبشار، يأتي الطرف الآخر: ﴿وَوُجْهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾. الغبرة ما يعلو الوجه من غبارٍ وكدورة، فتطمس صفاءه وتغيّر لونه. إنها صورة الذلّ والخوف والحزن حين تغطي الإنسان كما يغطي التراب الشيء المتروك.

وفي التعبير ﴿عَلَيْهَا﴾ إحساسٌ بأن الغبرة حملٌ أُلقي فوق الوجه واستقر عليه؛ ليست لونا أصيلاً في الخلقة، بل أثر ما كسبت النفس. فقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وأرسل إليه التذكرة، وسرّ له السبيل؛ لكن الجحود والفجور راكما على فطرته حتى ظهر أثرهما يوم انكشف السرائر.

وما أقسى الغبرة على وجهٍ كان يحرص في الدنيا أن يبقى لامعاً أمام الناس! ربما بذل صاحبه المال والوقت ليحمي صورته الاجتماعية، وأدار الأكاذيب حتى يبدو نقيّاً، وأخفى مظالمه خلف لقبٍ محترم؛ ثم جاء اليوم الذي لا يستطيع فيه أن يمسح ذرةً واحدةً من غبار الحقيقة.

إن الصورة التي نرسمها عند الناس ليست بلا قيمةٍ مطلقاً؛ فالسمعة الطيبة قد تكون أثر استقامة، لكن الخطر أن تصبح بديلاً عن الاستقامة. قد يحرص الإنسان أن يراه الناس عادلاً أكثر من حرصه على أن يكون عادلاً، ويخاف افتضاح الذنب أكثر من خوفه من الذنب نفسه. عندئذٍ لا يعالج المرض، بل يجمّل غطاءه.

غبرة النفس قبل غبرة الوجه

للمعصية غبارٌ يتراكم على البصيرة قبل أن يظهر على الوجه يوم القيامة. الذنب الأول قد يوجع الضمير، فإذا تكرر من غير توبة خفت الألم، ثم يغدو مألوفاً، ثم يدافع الإنسان عنه، ثم يراه حقاً. هكذا يتكون الران: لا ينزل فجأةً كلمةً كاملة، بل يتراكم نقطةً بعد نقطة.

والتوبة ليست اعتذاراً لفظياً يرفق فوق هذا الغبار، بل غسلٌ حقيقيٌّ للقلب بالندم والإقلاع والعزم وردّ الحقوق. وكلما بادر الإنسان إلى التوبة بقيت مرآته أقرب إلى الصفاء؛ أما التأجيل فيمنح الغبرة زمناً للتلتصق.

ولا ينبغي أن يقود هذا المعنى إلى وسواسٍ يطارد الإنسان حتى يشكّ في كل حسنة؛ فالله يحب التوابين، ويفرح بتوبة عبده، وقد جعل الحسنات يذهبن السيئات. المطلوب قلبٌ يقطّ لا قلبٌ يأس؛ كلما علاه غبارٌ عاد إلى الماء.

﴿تَرْهَقُهَا قَتْرَةٌ﴾: ظلمةٌ تطارد الوجه وتغشاه

لم تقف الصورة عند الغبرة، بل قالت: ﴿تَرْهَقُهَا قَتْرَةٌ﴾؛ أي تغشاه وتعلوها ظلمةٌ وسواد. والغبرة كدورة، والفترة ظلمة، واجتماعهما يرسم وجهاً أحاط به الذل والكرب من كل جانب.

فعل ﴿تَرْهَقُهَا﴾ يحمل معنى اللحاق والغشيان والضغط؛ كأنّ الفترة تطارد أصحابها حتى تدرك وجوههم ولا تترك لهم مفراً. في الدنيا كانوا يفرّون من التذكرة، ويختبئون خلف القوة والمكانة، أما هناك فتدركهم آثار ما صنعوا.

إنّ الذنوب التي ظنّ الإنسان أنها مضت لم تمضِ إن لم تحمها التوبة؛ ربما غابت عن ذاكرته، لكنها باقيةٌ في علم الله وكتاب العمل. وما ينساه الضمير لا يسقط بالضرورة من الحساب. لذلك كان الاستغفار استدراكاً لما نعلم وما لا نعلم، واعترافاً بأن في صحائفنا أشياء ربما لم ننتبه إلى عمق أثرها.

والفترة ليست ظلمًا وقع على تلك الوجوه من خارجها، بل ظهورٌ لعدالة المصير. الله لا يظلم مثقال ذرة، ولا يعاقب إنسانًا بغير ما استحق بعد قيام الحجة. وما كان فيه من خيرٍ يعلمه الله، وما كان من ضعفٍ أو إكراهٍ أو جهلٍ معتبرٍ يدخل كله في ميزان عدله.

الظلمة جزاء من أعرض عن النور

كانت بين أيديهم تذكرةٌ في صحفٍ مكرمةٍ مرفوعةٍ مطهرة، لكنهم أعرضوا عن نورها؛ فناسب أن تنتهي الرحلة إلى الفترة. ليس لأن الله حرّم النور ابتداءً، بل لأنهم أغلقوا عنه نوافذهم، واستحبوا العمى على الهدى.

كل إعراضٍ عن الحق يصنع في الداخل مساحةً من العتمة، وكل استجابةٍ تفتح منفذًا للضوء. والإنسان لا ينتقل غالبًا من النور إلى الظلمة في قفزةٍ واحدة؛ يبدأ بتسويةٍ صغيرةٍ مع الباطل، ثم يصنع لها تبريرًا، ثم يبني التبرير مذهبًا، حتى يصبح الدفاع عن الظلمة جزءًا من هويته.

وقد يظلّ صاحب الباطل محاطًا بأضواء الشهرة في الدنيا، لكن الضوء الخارجي لا يبدد ظلمة الداخل. بل قد تزيد الشهرة عماء؛ لأنها تمنحه جمهوراً يؤكد له صورته. وعندما تطفئ الأضواء المستعارة يوم القيامة، لا يبقى إلا النور الذي بناه الإيمان أو الظلام الذي راكمه الجحود.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾: فساد الصلة بالله وفساد الحركة في الحياة

تختم السورة بتعيين أصحاب الوجوه التي عليها الغبرة والفترة: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾. جمعت بين الكفر والفجور؛ بين فساد الاعتقاد وفساد السلوك، وبين قطع الصلة بالله والخروج عن حدوده في الحياة.

الكفر سترٌ للحقِّ ووجودٌ له، والفجور شقٌّ لحدود الاستقامة وانبعاثٌ في المعصية؛ ومنه الفجر لانشقاق الضوء من الظلام، فكأنَّ الفاجر يشقُّ ستر الطاعة ويخرج إلى التمرد. وحين يجتمع الكفر والفجور يكون الظلام قد أصاب مصدر الرؤية ومسار الحركة معاً: لا يرى الحق، ولا يسير في حدوده.

ليست المشكلة فكرةً باطنةً منعزلة، بل إنَّ الاعتقاد يصنع أثره في السلوك. من ظنَّ أنه لا حساب عليه سيتخفف من القيود الأخلاقية حين تتعارض مع مصلحته، ومن استغنى عن الله سيبحث عن إلهٍ آخر في المال أو السلطة أو الذات. والفجور في الخارج كثيراً ما يكون ثمرة كفرانٍ في الداخل.

ومع ذلك لا تعني الآية أن كل عاصٍ صار من الكفرة الفجرة؛ فالمؤمن قد يقع في الذنب ويظل أصل إيمانه قائماً، ثم يتوب الله عليه. إنما السياق فيمن جمع الكفر المستقر والفجور المتبع له، وأصرَّ حتى لقي الله بذلك. وضبط هذا المعنى واجبٌ حتى لا تتحول آيات الوعيد إلى بابٍ للتكفير المتعجل أو القنوط من الرحمة.

الكفران يبدأ من نسيان النعمة

قالت السورة قبل ذلك: ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾، ثم ختمت بـ ﴿الْكَفَرَةُ الْفَجْرَةُ﴾. وبين الموضعين عرضت أصل الإنسان وطعامه؛ فكأنها تكشف أن الجحود لا يعيش في فراغ، بل أمامه نعمٌ لا تنتهي ومع ذلك يسترها.

الكافر لا يخلق لنفسه بديلاً عن ماء الله وأرضه وطعامه؛ إنه يعيش في النعمة التي يجحد مصدرها. يستخدم العقل الذي وهبه الله لينكر واهبه، ويستعمل اللسان المخلوق ليجادل في

الخالق، ويتقوى بالطعام الذي أنبته الله على معصيته. وهذه المفارقة هي التي تجعل الكفران مستحقاً لذلك التعجب والتوبيخ: ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾.

وللمؤمن نصيبٌ من التحذير: لا تجعل إقرارك اللفظي بالله يخفي كفراناً عملياً للنعم. قد تؤمن بالرازق ثم تعيش ساخطاً على كل ما لم تُعط، وقد تعرف أن القوة منه ثم تنسب النجاح كله إلى ذاتك، وقد تحمده بلسانك ثم تستخدم نعمته في أذى عباده. الشكر الكامل إيمانٌ في القلب، وحمدٌ باللسان، واستعمالٌ للنعمة في الطاعة.

وجهان وطريقان

لم تذكر السورة في ختامها منطقةً رماديةً بين الوجهين؛ لأن المشهد مشهد المآل الأخير بعد تمام الحساب. هناك وجوهٌ مسفرة، وهناك وجوهٌ عليها غبرة. وقد تعدد درجات أهل كل فريق، لكن الاتجاه النهائي واضح: نورٌ أو ظلمة، بشرى أو كرب، استجابةٌ للتذكرة أو إعراضٌ عنها.

في الدنيا تختلط الحالات؛ قد يشرق وجه المؤمن اليوم ثم تغشاه غفلة، وقد يثقل بالذنوب ثم يمسه الاستغفار. ما دام الإنسان حياً، فإن ملامحه الأخروية لم تُختم؛ لا يزال قادراً بإذن الله أن ينتقل من طريقٍ إلى طريق، وأن يحو بتوبته آثاراً كان يخشى أن تظهر.

وهذه رحمة الزمن الحاضر: إنه لم يتحول بعد إلى مصير. كل لحظةٍ قبل الموت مادةٌ قابلةٌ لإعادة التشكيل. تستطيع أن تستبدل الكبر بتواضع، والجحود بشكر، والتوليّ بإقبال، والعبوس ببشاشة، والفجور بتوبة.

لكن هذه المرونة لا تدوم إلى الأبد؛ يأتي أجلٌ تُغلق عنده صفحة العمل، ثم يصير ما كان اختياراً وجهاً ومصيراً. ولهذا كان التسويف أخطر من الذنب أحياناً؛ لأنّ الذنب قد يوقظ

ندماً، أما التسويف فيقنع صاحبه بأن الغد مضمون، حتى يأتي اليوم الذي لا غد بعده للعمل.

الوجه لا الألقاب

في المشهد الأخير لا نسمع أسماء ولا أنساباً ولا مناصب. لا تقول السورة: ملوك وأتباع، علماء وعامة، أغنياء وفقراء؛ تقول: ﴿وُجُوهٌ﴾. لقد انتهت اللغة الاجتماعية التي صنّف الناس بها بعضهم، وبقيت اللغة الأخلاقية التي صنّفهم بها عملهم.

أين المستغني الذي تصدّى له الناس؟ أين الأعمى الذي لم تكن له مكانة في المجلس؟ لا تشير الخاتمة إلى شيء من ذلك؛ لأن العمى والبصر والغنى والفقر أوصاف ابتلاء، لا أحكام مصير. الذي يحدد الوجه الأخير هو ما صنع القلب بما أبلى به.

قد يكون الغني من الوجوه المسفرة إذا شكر وأعطى وتواضع، وقد يكون الفقير من الوجوه المظلمة إذا جحد وجفر؛ وقد يكون المبصر أعمى القلب، ويكون فاقد البصر ممتلئ البصيرة. القرآن لا يستبدل طبقةً بطبقة، بل يردّ الناس جميعاً إلى معيار العبودية.

وهذا أعدل ميزانٍ يمكن أن يعرفه الإنسان؛ لا يعاقبك على هيئةٍ لم تختزها، ولا يمنحك النجاة لنسبٍ لم تصنعه، وإنما ينظر إلى قلبك وعملك في حدود قدرتك وعلمك. كل ما كان الناس يتفاضلون به من زخارف يسقط، ويبقى الصدق الذي لا يُشترى.

الوجه الذي صنّعه النظرات

بدأت السورة بتصحيح نظرةٍ إلى إنسان، وتنتهي بالنظر إلى وجوه البشر. وبينهما تعليمٌ طويلٌ للعين: انظر إلى طالب الهدى بما في قلبه، وانظر إلى التذكرة بما لها من كرامة، وانظر إلى

أصلك فلا تتكبر، وانظر إلى طعامك فتعرف المنعم، ثم انظر إلى وجوه الآخرة لتعرف غاية الطريق.

كأن الوجه الأخير حصيلة طريقة النظر في الدنيا. من نظر إلى الناس بعين الاحتقار أظلم في داخله شيء، ومن نظر إلى النعمة بعين الشكر أضاء فيه شيء، ومن نظر إلى نفسه بعين الافتقار تخلص من غرورها، ومن نظر إلى الآخرة بعين اليقين صحَّ اتجاهه.

ليست النظرة فعلاً محايداً؛ إنها تكشف قيمةً وتسهم في بناء خلق. حين تطيل النظر إلى ما في أيدي الناس ينمو الحسد، وحين تنظر إلى نعم الله ينمو الشكر، وحين تراقب عيوب الآخرين تنمو القسوة، وحين تراجع تقصيرك تنمو التوبة.

ولهذا كان القرآن حريصاً على العين الباطنة؛ فما يستقر في الرؤية يتحول مع الزمن إلى موقف، ثم إلى عادة، ثم إلى ملاحمٍ روحيةٍ يحملها الإنسان إلى ربه. ابن أم مكتوم بين أول السورة وآخرها

في أول السورة جاء رجلٌ لا يرى وجوه الناس، لكنه كان يصنع وجهه الأخرى بالسعي والخشية. لم يكن يعرف من يعبس ومن يتسم، ولم يكن بصره يلتقط ألوان المجلس، لكن قلبه كان متجهاً إلى النور الذي سيجعل الوجوه مسفرة.

وأولئك المبصرون المستغنون كانوا يرون هيئة الدنيا، لكنهم لم يروا حقيقة أنفسهم ولا قيمة التذكرة. رأوا مجلساً يستطيعون قبوله أو رفضه، ولم يروا صفحاً مكرمَةً مرفوعةً مطهرة. رأوا داعيةً يرجو إيمانهم، ولم يروا أنهم هم الفقراء إلى ما يحمل.

إنها المفارقة التي تشق السورة كلها: أعمى الجسد يمضي نحو النور، ومبصر العين يختار العتمة؛ ضعيفٌ في حساب الأرض يصنع وجهًا قويًا بالبشرى، وقويٌّ في حساب المجتمع يهين نفسه غبرةً وقرةً.

وهذا يحرق كل إنسانٍ أثقلته نظرة الناس إلى نقصه. قد تفقد أداةً من أدوات الدنيا، لكن طريق الله لا يُغلق عن قلبك. وقد تُحرم من الجمال أو المال أو الصحة أو الشهرة، لكنك لم تُحرم القدرة على الصدق في حدود وسعك. والنجاة لا تحتاج إلى الوجه الذي يعجب الناس، بل إلى القلب الذي يقبل على الله.

ضحكٌ لا يسخر من أحد

قالت الآية: ﴿ضَاحِكٌ مُسْتَبْشِرٌ﴾، وليس ضحكها سخريةً من أصحاب الوجوه الأخرى؛ فالشماتة ليست من نقاء الجنة. إنها تضحك فرحاً بفضل الله، لا انتصاراً للأناية. لقد تظهرت من الأحقاد التي كانت تكرر فرح الدنيا.

في الدنيا قد يفرح الإنسان بسقوط خصمه أكثر مما يفرح بظهور الحق، وقد يخلط بين النصر والانتقام، وبين العدالة والتشفي. أما الوجوه المسفرة فقد خرجت من ضيق النفس؛ لا تحمل في ضحكتها مرض المقارنة، بل امتلاء البشرى.

ومن أراد ذلك الضحك فليطهر أفراحه من الآن. لا تجعل سعادتك قائمةً على إذلال أحد، ولا نجاحك محتاجاً إلى فشل غيرك، ولا نصرتك للحق ستاراً لكرهية الأشخاص. افرح بالهدى إذا جاء على يد غيرك، وبنجاة من كنت تخالفه، وبالتوبة التي تحو ماضي خصمك؛ فالمقصود أن ينتصر الخير، لا أن تنتصر صورتك.

الغبرة التي صنعتها أيدي أصحابها

لا ينبغي أن يُقرأ مشهد الوجوه المظلمة بلذة الحكم على الآخرين. أخطر قارئٍ للوعيد هو من يوزعه على الناس ويستثني نفسه. السورة لم تنزل لتمنحنا نافذةً تتلصص منها على مصائر الخلق، بل مرآةً نرى فيها احتمالات مصيرنا.

حين تقول: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾، لا تسرع في تعيين الأفراد من عندك، ولا تجعل الآية وقوداً لخصومتك. اعرف الصفات، واحذر الطريق، وادع للناس بالهداية ما داموا أحياء. فالتبني ﷺ كان يرجو إيمان من أعرضوا عنه، ولم يكن فرحه في هلاكهم. إنَّ الوعيد حدٌّ يحمي الإنسان من الطريق، لا حجرٌ يقذفه على من يكره. ومن قرأ آيات النار فزادته كبراً على العصاة، فليخش أن يكون قد أخذ من اللفظ وترك التذكرة. الفهم الصادق يولد خوفاً على النفس ورحمةً بالخلق، لا أمناً وغروراً.

صناعة الوجه المسفر

كيف يصنع الإنسان بإذن الله وجهه المسفر؟ لا يصنعه بعملٍ واحدٍ منعزل، بل بسيرةٍ تكرر فيها العودة إلى الله:

يصنعه بتوحيدٍ يردُّ الفضل إلى صاحبه.

وبتوبةٍ لا تبرر الخطأ.

وصلاةٍ تنهى عن الفحشاء والمنكر.

وقرآنٍ يقرأه ليغيّره لا ليثبت به صورته.

وعدلٍ يظهر مع القريب والخصم.

ورحمةٍ بالضعيف الذي لا يرجو منه منفعة.

وشكرٍ يرى في اللقمة رحلة العناية الإلهية.

وحقّ يردّه قبل أن يصير مطالبةً يوم الصاخّة.

وخشيةً تحرك القدم نحو الله كما حرّكت ابن أم مكتوم.

ومع ذلك لا يتكل على عمله، بل يرجو فضل الله؛ لأنّ القلب قد يعمل ثم يُبتلى بالعجب، والعجب غبرةٌ خفية. كلما ازداد المؤمن عملاً ازداد دعاءً بالقبول، وعلم أن توفيقه للطاعة نعمةٌ تحتاج إلى شكرٍ جديد.

ليس الوجه المسفر مشروع تجليلٍ أخلاقيٍّ أمام الناس؛ فقد يعمل المرء الصالح ولا يراه أحد. إنّه بناءٌ في السرّ، في اللحظات التي يستطيع فيها أن يعصي ولا يفعل، وأن ينتقم فيعفو، وأن يأخذ ما ليس له فيتركه، وأن يُظهر عمله فيخفيه.

من العبوسة إلى الإسفار: هندسة السورة

تنظم سورة عبس في دائرة محكمة:

بدأت بوجه عبس، ثم كشفت سبب اختلال الاهتمام بين مستغنٍ وساعٍ خاشٍ، ثم رفعت التذكرة إلى مقامها في الصحف المكرمة، ثم ردّت الإنسان إلى نطفته كي تسقط كبرياؤه، ثم دعت إلى النظر في طعامه كي يستيقظ شكره، ثم فجّرت الصاخّة فسقطت حصونه العائلية، وأخيراً عرضت عليه الوجه الذي سيحمله بعد انتهاء الرحلة.

ليس في السورة موضوعٌ غريبٌ عن الآخر؛ كلها تعيد بناء رؤية الإنسان إلى القيمة. من يستحق الاهتمام؟ ما قيمة الوحي؟ ما أصل الإنسان؟ من يصنع طعامه؟ إلى أين تمضي علاقاته؟ وما الصورة التي يستقر عليها مصيره؟

والخيط الجامع هو البصيرة: أن ترى الضعيف بقلبه، وترى القرآن بمصدره، وترى نفسك بأصلها، وترى الطعام بخالقه، وترى الأسرة بحدودها، وترى الوجه بمآله. فإذا صحَّ النظر استقام السلوك، وإذا عميت البصيرة لم تنفع سلامة العين.

السؤال الذي يبقى بعد آخر آية

بعد أن تسكت التلاوة عند قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْفَجَرَةُ﴾، لا ينبغي أن يسكت السؤال في داخلنا: أي وجه نصنع الآن؟

ليس وجه القيامة هديةً مفاجئةً لا صلة لها بالحياة، بل حصاد عمرٍ كاملٍ تحت رحمة الله وعدله. كل صباح صفحة، وكل تعاملٍ خط، وكل نيةٍ لون، وكل توبةٍ غسل. ونحن نرسم ملاحظنا الأخيرة بأعمالٍ قد لا ننتبه إلى صغرها.

ربما تكون ابتسامةٌ في وجه مكسورٍ نقطة نور، ولقمةٌ محتاجٍ إشراقة، وتراجعٌ عن ظلمٍ محوًا لغبرة، ودمعة استغفارٍ ماء يغسل سوادًا تراكم سنوات. وربما تكون نظرة احتقارٍ بداية ظلمة، وكلمة افتراءٍ غبارًا، واستغناءً عن التذكرة بابًا إلى القفرة.

ما دام فينا نفس، فالصورة لم تكتمل. نستطيع أن نعود إلى الله، وأن نطلب منه وجهًا يشرق برضاه، وأن نغيّر الطريق قبل أن يتحول إلى مصير. ليس أحدٌ أكبر من التوبة، ولا ذنبٌ أعظم من رحمة الله لمن صدق في الرجوع وردّ الحقوق.

لقد بدأت السورة بعبوسةٍ لم يرها الأعمى، وخُتمت بوجوهٍ يراها الخلق جميعًا. وبين ما لا يراه البشر وما يظهر لهم يوم القيامة، يظل الله هو الشاهد الذي لا تغيب عنه حركة وجهٍ ولا خفقة قلب.

فطوبى لمن علم أن الله يراه، فاستحيا أن يملأ خلوته ظلمة؛ وطوبى لمن جاءه الضعيف فلم يعبس، وجاءته التذكرة فلم يستغن، وجاءته النعمة فلم يكفر، وجاءه الأمر فلم يؤجله، وجاءه الليل فغسل وجهه بدمع الرجوع.

ذلك هو الوجه الذي يرجو - إذا جاءت الصاخّة، وفرّ المرء من أقرب الناس إليه، وانكشفت السرائر - أن يرفعه الله بين الوجوه، لا غبرةً عليه ولا قفرة، بل صباحاً إنسانياً جديداً:

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿١٠٠﴾ صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿١٠١﴾﴾

حِينَ تُعِيدُ السُّورَةَ إِلَى الْعَيْنِ بِصِيرَتِهَا وَإِلَى الْإِنْسَانِ مِيزَانَهُ

نخرج من سورة عبس كما يخرج المرء من أمام مرآة لم تُره ملامحه وحدها، بل كشفت له الطريقة التي ينظر بها إلى نفسه وإلى الناس وإلى النعمة والوحي والمصير. إنها سورة قصيرة في عدد آياتها، لكنها تعيد ترتيب عالم كامل داخل الإنسان؛ تبدأ من انقباضٍ دقيقٍ في الوجه، ثم لا تزال توسّع دوائر الرؤية حتى تبلغ النطفة والقبر، والمطر والحقل، والأسرة والصاخة، والوجه الذي يستقرّ عليه المصير الأبدي.

لم يكن مطلعها تسجيلاً خطياً وقع ثم انقضى، بل تأسيساً لميزانٍ لا يجوز للدعوة ولا للعلم ولا للمجتمع أن يتجاوزوه. لقد جاء رجلٌ أعمى يطلب الهداية، وكان في المجلس من يرى بعينه ولا يرى حاجته إلى الله؛ فانحاز الوحي إلى القلب المقبل، لا لأنّ الضعف فضيلةٌ في ذاته، ولا لأنّ أصحاب المكانة لا يستحقون البلاغ، بل لأنّ القيمة عند الله لا تُستمدّ من جاهٍ ولا مال، وإنما من سعي الإنسان وخشيته واستعداده للتزكية.

وهنا تضع السورة يدها على مرضٍ يخفى في أثوابٍ شتى: أن نقيس البشر بما يمكن أن يقدّموه لنا، وأن يصبح الاهتمام استثماراً، والإنصات مكافأةً لصاحب النفوذ، والاحتفاء تابعاً للشهرة. إنها جاهليةٌ ناعمةٌ قد تسلل إلى المجالس الدينية والثقافية كما تسلل إلى الأسواق والسياسة؛ فنفتح الأبواب لمن تزيد أسمائهم صورتنا لمعاناً، ونعطي الضعيف ما تبقى من وقتنا، ثم نظنّ أننا خدمنا الإنسان.

لكنّ سورة عبس لا تسمح للحق أن يتحول إلى نادٍ للجبار، ولا للمعرفة أن تصير امتيازاً اجتماعياً، ولا للدعوة أن تستمدّ عزتها من المتلقين. فبعد العتاب مباشرةً ترتفع الآيات بنا إلى مقام التذكرة: ﴿كَأَلَّا إِنَّمَا تَذَكُّرُ﴾. إنّ القرآن لا يقف محتاجاً عند أبواب المستغنين؛ هم المحتاجون إليه، ولا يزداد رفعةً بإقبالهم، بل يزدادون هم رفعةً إذا أقبلوا عليه.

إنّهُ في صحفٍ مكرمةٍ مرفوعةٍ مطهرة، تحمله أيدي سفرةٍ كرامٍ بررة؛ فلا يليق بحامل هذا الكلام أن يقدمه معتذراً عن حقائقه، ولا أن يغير موازينه كي يرضى عنه عصرٌ أو سلطان، كما لا يليق به أن يتكبر به على الخلق. فمن عرف عظمة ما يحمل، جمع بين عزة الرسالة وتواضع الرسول عنها؛ لم يستجد بها قبلاً، ولم يجعلها سلماً إلى ذاته.

والقرآن تذكرة؛ وهذه الكلمة وحدها تكشف طبيعة علاقتنا به. نحن لا نأتي إليه ممثلين كي نخبره، بل نأتي فقراء كي يذكّرنا بما نسينا: حقيقة العبودية، وضالة البداية، وقرب النهاية، وحق النعمة، وكرامة الإنسان. إننا لا نقرأه ليؤكد كل ما فينا، بل ليصححنا؛ ولا نفتح صفحاته لنجد الآخرين في مواضع العتاب، بل لنجد أنفسنا.

وأشدّ هجر القرآن خفاءً أن يتلوهُ الإنسان بلسانه، ثم يمنعه من الوصول إلى ميزانه؛ يحفظ آياته، لكنه ينظر إلى الناس بمنطق الجاه، ويعظم مصحفه، لكنه يحتقر الفقير الذي يطلب منه العلم، ويتحدث عن كرامة الوحي، ثم يذلّ حقيقته عند أصحاب السلطة. فالتذكرة لا تتمّ بوصول الصوت إلى الأذن، بل بوصول سلطانه إلى القرار.

ثم تأخذ السورة الإنسان من صورته التي بناها لنفسه إلى مادته التي بدأ منها: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾. إنه سؤالٌ يضع حداً لخطيئة الأناب؛ فمن كان نطفةً لا

يجوز أن يتأله، ومن لم يصنع خليةً في جسده لا يحق له أن ينسب الفضل كله إلى نفسه، ومن أخرج إلى الدنيا عاجزاً سيظلّ مفتقراً وإن أحاطت به أسباب القوة.

غير أن التذكير بالنطفة لا يهين الإنسان؛ فالذي خلقه منها هو الذي كرمه، وقدر أعضائه، ويسر سبيله، ومنحه العقل والإرادة والأمانة. إنه تواضعٌ يحفظ الكرامة، لا احتقارٌ يسحقها؛ يعرف المرء أنه لا شيء بغير الله، لكنه بالله مخلوقٌ لمعنى عظيم. فيتحرر من غرور الاستقلال، كما يتحرر من ذلّ انعدام القيمة.

وبين النطفة والقبر تقع فسحةٌ قصيرةٌ نسميها العمر. لا يملك الإنسان بدايتها، ولا يملك نهايتها، لكنه يُمنح في وسطها مساحة الاختيار. يخلق الله ويقدر ويسر ويميت ويقبر وينشر، ثم يبقى سؤال العبد: ماذا فعلت في الجزء الذي كان أمانةً بين يديك؟

إنّ مأساة الإنسان ليست أنه ضعيف، بل أن يبدد قوته المؤقتة في إنكار ضعفه الدائم؛ وأن يأخذ من الله أدوات الحياة، ثم يستخدمها في الجحود؛ وأن يأكل من رزقه، ويسير فوق أرضه، ويتنفس من هوائه، ثم يتصرف كما لو كان وجوده ملكاً خاصاً لا حقّ للخالق فيه.

ولهذا جاءت الصيحة: ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾. ليست صيحةً ضد ضعفه، بل ضد جحوده؛ ولا ضد إنسانيته، بل ضد ما يهدر إنسانيته. فالكفران يجعل النعمة حجاباً بدل أن تكون دليلاً، ويحوّل العطاء إلى مادةٍ للاستغناء، ويجعل الإنسان كلها ازداد أخذاً أقلّ اعترافاً.

ثم يأتي الحكم الذي ينبغي أن يظلّ مفتوحاً في ضمير كل مؤمن: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾. لم تبلغ بعد تمام الوفاء، ولم نشكر كما ينبغي، ولم نعبد الله حق عبادته. وليس في هذا الحكم

دعوةً إلى اليأس، بل تحريراً من وهم الاكتمال. ما دام الإنسان يعرف أن عليه بقيةً من الطريق، فهو قادرٌ على السير؛ أما إذا ظن أنه بلغ، فقد بدأ سقوطه في الاستغناء.

قد يستغني الغني بماله، ويستغني العالم بعلومه، ويستغني العابد بطاعته، ويستغني الكاتب بكلماته، ويستغني المصلح بمشروعه؛ وكلها صورٌ مختلفةٌ لمرضٍ واحد: أن تتحول نعمة الله إلى حاجزٍ يمنعك من الافتقار إليه. والعبودية الصادقة أن تكبر أعمالك في نفع الناس، وتصغر في عينك حين تنسبها إلى نفسك.

بعد ذلك تضع السورة أمام الإنسان مائدته اليومية، وتقول: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾. لم تأمره أن يأكل؛ فهو يفعل ذلك بغريزته، بل أمرته أن ينظر، لأنّ الأكل يحفظ الجسد، أما النظر فيردّ للروح وعيها. إنّ الفارق بين الإنسان والأنعام ليس في أصل الانتفاع بالطعام، بل في قدرة الإنسان على أن يرى في اللقمة أثر الرحمة، وفي الماء يد التدبير، وفي الحبة دليل البعث.

يا له من تاريخٍ مهيّبٍ مطويٍّ في قطعة خبز: ماءٌ صُبَّ، وأرضٌ سُقَّتْ، وحبٌّ أُنبِت، وشمسٌ أضاءت، وأيدٍ زرعت وحصدت ووطعت، ثم وصلت اللقمة إلى فم إنسانٍ ربما لم يسأل لحظةً واحدة: كيف اجتمع كل ذلك لأجلي؟

إنّ الألفة تسلب النعمة صوتها، فيأكل الإنسان ولا يسمع شهادتها. تمرّ الآيات من بين يديه كل يوم، لكنها تفقد قدرتها على الإدهاش؛ لا لأنها صارت أقلّ إعجازاً، بل لأنّ القلب صار أقلّ نظراً. ولهذا لا يحتاج الإنسان دائماً إلى معجزةٍ جديدة، بل إلى عينٍ جديدةٍ ترى المعجزة القديمة.

والنظر إلى الطعام لا يكتمل بالحمد الفردي وحده؛ إنه يفتح سؤال العدالة. إذا كان الله قد أنبت الحب والعنب والزيتون والنخل متاعاً للناس، فمن الذي صنع الجوع وسط الوفرة؟ ومن الذي حبس الأقوات، وأفسد الأرض، ولوث الماء، وألقى الطعام بينما يفتش الفقير عن لقمة؟

إنّ قولنا إن الله هو الرازق لا يعفينا من مسؤولية إيصال الرزق؛ فقد يجعل رزق الضعيف في يد القوي اختباراً له. وربما كان جواب دعاء الجائع في خزائن شعبان لم يفتحها. فالشكر ليس كلمة تقال بعد الامتلاء فقط، بل يدُ تمتد قبل أن ينام الآخر جائعاً.

ثم تنقلب الحديقة إلى محشر، وصوت المطر إلى صاخة. الأرض التي تشققت عن الحب ستتشقق عن البشر، والإنسان الذي جلس مع أهله حول مائدته سيفرّ من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه. ليس لأنّ المودة كانت باطلاً، بل لأنّها لم تكن قادرةً على حمل المصير.

تكشف الصاخة حدود العلاقات البشرية. إنّها ثمينةٌ جميلةٌ ومأمورةٌ برعايتها، لكنها ليست آلهةً تملك النجاة. الأم التي حملت عنك آلام الدنيا لا تحمل عنك تبعة الآخرة، والأب الذي حماك من المخاوف لا يملك أن يحميك من عدل الله، والزوج والصاحب والولد لا يستطيع أحدٌ منهم أن يدخل قبرك بدلاً عنك.

ولا تريد السورة أن تجعل الإنسان وحيداً بارداً تجاه أهله، بل أن تحرر حبه من العبادة. أحبيهم بالله، وأدّ حقوقهم لله، وأعنيهم على طاعة الله، ولا تعص الله من أجل رضاهم؛ لأنّ الحب الذي يبعد المحبوب عن النجاة خيانةٌ للعاطفة، وإن بدا في لحظة وفاء.

إنَّ أعظم ما يقدمه الوالد لولده ليس ميراثاً يأكله، بل ميزاناً يحملُه؛ وأعظم ما يهديه الزوج لصاحبه ليس بيتاً يحمي الجسد وحده، بل مودةً تعين الروح على الطريق؛ وأصدق نصرة للأخ أن تمنعه من الظلم، لا أن تقف معه فيه باسم العصبية.

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾؛ في الدنيا كان الإنسان يتوزع بين الأدوار والالتقاءات، أما هناك فيُردُّ إلى اسمه الأخلاقي الفردي. لا تختبئ الروح داخل حزبٍ أو قبيلةٍ أو أسرةٍ أو جماعة، ولا تذوب المسؤولية في قولنا: كان الجميع يفعلون. كل امرئٍ يقف في المساحة التي منحها الله له، ويسأل عما عرف واستطاع واختار.

وهكذا تسحب السورة من الإنسان حصاناته واحدةً بعد أخرى: حصانة المكانة في المطمع، وحصانة الاستغناء، وحصانة القوة الجسدية، وحصانة المتاع، وحصانة الأسرة. لا لتتركه عارياً في فراغ وجودي، بل لتردّه إلى الحصن الوحيد الذي لا يسقط: عبوديته لله واعتصامه برحمته.

ثم تختم بالوجه. وهنا نكتشف أن السورة كلها كانت تكتب في الوجه الأخير منذ آيتها الأولى. عبوسةٌ خفيةٌ هناك، وإسفارٌ أو غبرةٌ هنا؛ سعيٌ وخشيةٌ هناك، وضكٌ واستبشارٌ هنا؛ استغناءٌ وإعراضٌ هناك، وقترةٌ تلاحق الوجه هنا. لم يكن شيءٌ عابراً، فكل حركةٍ كانت ترسم خطأ في ملامح المصير.

إنَّ وجه القيامة ليس القناع الذي أتقن الإنسان صناعته في الدنيا، بل الحقيقة التي كان يخفيها القناع. هناك لا تستطيع الشهرة أن تضيف ضوءاً، ولا الثروة أن تمسح غباراً، ولا البلاغة أن تصنع عذراً. تخرج الروح إلى السطح، ويصبح الوجه ترجمةً صادقةً لتاريخ القلب.

﴿وَجْهٌ يُؤْمِنُ مَسْفَرَةٌ﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾؛ لم تُخلق هذه الإشراقة يومئذٍ من فراغ، بل كانت تُكوّن في سجدةٍ بعيدةٍ عن العيون، وفي دمعة توبة، وفي لقمةٍ أُعطيت لاحتاج، وفي حقٍّ رُدَّ إلى صاحبه، وفي رحمةٍ حُفظ بها قلب ضعيف، وفي خشيةٍ حرّكت القدم إلى مجلس الذكر.

﴿وَجْهٌ يُؤْمِنُ عَلَيْهِا غَبْرَةٌ﴾ تَرَهُّقَهَا قَتْرَةٌ﴾؛ لم يهبط عليها الظلام ظلمًا، بل ظهر عليها ما تراكم في الداخل من كفرانٍ وفجور، وإعراضٍ واستغناء. لقد كانت التذكرة قريبة، والسبيل ميسرًا، والآيات في الخلق والطعام والموت تحيط بها، لكنها اختارت أن تستر النور حتى ظهر أثر ما اختارت.

ومع ذلك، ما دام الإنسان يقرأ هذه الآيات في الدنيا، فإن وجهه الأخير لم يُختم بعد. ما زال في التوبة ماءً يغسل الغبرة، وفي الإيمان نورٌ يبدد القترة، وفي ردّ المظالم طريقٌ يخفف شأن الصاخة، وفي الاستغفار بابٌ يفتح على الرحمة.

هذه هي الهدية الكبرى للسورة: أنها لا ترينا الوجهين بعد فوات الأوان، بل تريناهما الآن كي نختار. تضع المصير أمامنا في صورة ملامح، وتجعل المستقبل حاضرًا في وعينا، ثم تترك لنا بقية العمر لرسم الوجه الذي نرجو أن نلقى الله به.

من العمى إلى البصيرة

في ظاهر الحكاية جاء أعمى إلى مجلس النبوة، لكنّ السورة تكشف أن العمى الحقيقي كان احتمالاً يهدد موازين المبصرين. لقد فقد الرجل ضوء العين، لكنه عرف أين يسعى؛ وأولئك ملكو الأبصار، لكنهم لم يعرفوا إلى أي شيء يحتاجون.

ومن هنا تصبح سورة عبس سورة البصيرة بامتياز. إنها لا تعالج العين التي لا ترى الأشكال، بل القلب الذي لا يرى القيم. تعالج عمىً يجعل الإنسان يرى الجاه ولا يرى الخشية، ويرى الطعام ولا يرى المنعم، ويرى الأسرة ولا يرى حدود قدرتها، ويرى الدنيا ولا يرى ما وراءها.

البصيرة ليست معرفة أشياء غامضة، بل رؤية الأشياء القريبة على حقيقتها. أن ترى في الفقير إنساناً لا أداة، وفي الغني مبتلىً لا سيّداً، وفي الطعام نعمةً لا حقاً ذاتياً، وفي الوقت أمانةً لا ملكاً، وفي الموت انتقالاً لا فناء، وفي القرآن تذكرةً لا زينةً ثقافية.

وقد تكون أعظم كرامةٍ يمنحها الله للإنسان أن يصحح له نظرتَه قبل أن يصحح ظروفه؛ لأن الظروف إذا اتسعت مع فساد الرؤية صنعت طغياناً أكبر، أما البصيرة فتستطيع أن تحول القليل إلى بركة، والابتلاء إلى قرب، والمكانة إلى خدمة.

منهجٌ للدعوة والعلم

تترك السورة للدعاة والمربين والعلماء وصيةً لا يجوز أن تغيب: ابدؤوا بمن جاء يسعَى. لا تجعلوا قلوب طلاب الحق تنتظر طويلاً على أبوابكم لأنكم مشغولون بمن لا يرى لنفسه حاجة. لا تقيسوا نجاح مجالسكم بأسماء الحاضرين، بل بمقدار ما حدث فيها من تركيةٍ وتذكّر.

وقد تكون كلمةٌ لإنسانٍ مجهولٍ أبقي أثراً من خطابٍ أمام آلاف. ليس المطلوب إهمال الجمهور أو ترك مخاطبة أصحاب القوة، بل ألا يصبح الانتشار صنماً يغير ترتيب الأمانات. إن الله يسأل عن القلب الذي وضعه أمامك، لا عن الجماهير التي تمنيت لو جاءت.

والعلم الذي لا يفتح أبوابه للضعفاء ناقص البركة، مهما علت لغته؛ والمعرفة التي تُشعر البسيط بالدونية قد تكون قد حملت من كبر صاحبها أكثر مما حملت من رحمة الحقيقة.

فالسفرة الذين حملوا الصحف وصفهم الله بأنهم ﴿كَرَامٌ بَرَّةٌ﴾؛ والكلمة الكريمة تحتاج إلى حاملٍ كريم، لا يذلّ السائل ولا يتخذ جهله مسرّاً لتفوقه.

ومن أدب التعليم أن يرى المعلم في السؤال المرتبك احتمال تزكية، وفي الطالب المتعثر مستقبلاً لا يعرفه. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يَزَكِّي﴾؛ لا تحبس أحداً في بدايته، فقد يكون وراء ضعفه الحاضر أفقٌ من النور لا تراه.

منهج في مراجعة النفس

لقد تلقى النبي ﷺ العتاب وبلغه للأمة؛ وهذه وحدها مدرسةٌ كاملةٌ في الصدق. فالإنسان الكبير حقاً ليس من يدعي أنه لا يخطئ، بل من لا يجعل مكانته حاجزاً أمام التصحيح. أما النفوس الصغيرة فتظن أن الاعتراف يهدمها، فتدافع عن الخطأ حتى يصبح جزءاً من هويتها.

كم نحتاج إلى أن نتعلم من الوحي أدب المراجعة: تصحيحٌ لا تشهير، ووضوحٌ لا إهانة، واعترافٌ لا يأس. لا نجعل الرحمة ذريعةً لطمس الخطأ، ولا نجعل الخطأ ذريعةً لسحق صاحبه. الله عاتب نبيه الكريم ﷺ، لكنه أحاط العتاب بلطف الخطاب ورفعة المقام.

وكل قارئٍ للسورة مطالبٌ أن يبحث عن «عبوساته» الخاصة؛ لا في الوجه وحده، بل في القلب والتصرف. من الذي تتلهى عنه؟ ومن الذي تتصدى له؟ متى يلين صوتنا لصاحب النفوذ ويشتد على الضعيف؟ أيّ إنسانٍ حبسناه داخل مظهره، فلم نرَ ما في قلبه من إمكان؟ المراجعة لا تعني أن نجلد أنفسنا على كل خاطر، بل أن نمتلك شجاعة رؤية أثرنا في الآخرين. قد تكون نيتنا حسنةً، لكن الأثر مؤلم؛ وصفاء النية لا يلغي واجب الإصلاح. إن حسن المقصد بداية، لا عصمةٌ للوسيلة.

منهج في الشكر

تعلّنا سورة عبس أن الشكر يبدأ بالنظر. فقبل أن يحمّد اللسان، ينبغي أن ترى البصيرة النعمة. من لم ير الرحلة المطوية في الطعام سيصبح حمده معرضاً لأن يتحول إلى عادة لفظية، أما من رأى الماء والأرض والحب والعمل في اللقمة، خرج «الحمد لله» من موضع أعمق. والشكر ليس شعوراً ساكناً، بل طريقة استعمال. شكر العلم نشره بأمانة، وشكر المال أداء حقه، وشكر القوة حماية الضعيف، وشكر المنصب إقامة العدل، وشكر الكلمة ألا تُستخدم في التضييل. النعمة التي لا تتحول إلى خيرٍ قد تصبح حجةً على صاحبها.

ومن تمام الشكر حفظ النعمة من الإسراف، وحماية مصادرها من الإفساد، وإشراك المحروم فيها. فالطعام الذي حملته السماء والأرض لا يليق أن يُرمى باستخفاف، والماء الذي قامت عليه الحياة لا يليق أن يُبدد كأنه لا ينفد.

منهج في حب الأسرة

تصوّر السورة فرار الأقربين، لكنها لا تهدم الأسرة؛ بل تعيد بناءها على أساسٍ ينفعها يوم الفرار. لا يكفي أن نوفر لأهلنا متاع الدنيا، ثم نترك أرواحهم بلا اتجاه. الأسرة ليست شركة للنجاح الاجتماعي فحسب، بل رفقةٌ في الطريق إلى الله.

إنّ أعظم رحمةٍ بأبنائنا أن نعلّمهم المسؤولية الفردية، وألا نجعل طاعتهم لنا بديلاً عن طاعتهم لله، وأن نبني فيهم ضميراً يستطيع الوقوف حين لا نكون معهم. وأعظم وفاءٍ للوالدين أن نبرهما من غير أن نرفعهما فوق أمر الله، وأن نمتد إليهما بالدعاء بعد انقطاع قدرتنا على خدمتهما.

وأصدق مودة بين الزوجين أن يصبح كل واحدٍ منهما سَكَنًا يعين الآخر على التوازن والطاعة، لا قيدًا يربطه بالدنيا. فالببوت التي يُذكر فيها الله لا تُعفى من الألم، لكنها تمتلك معنىً يحملها حين تهتز الأسباب.

السورة التي لا تنتهي بانتهاء التلاوة

تنتهي سورة عبس عند وصف الكفرة الفجرة، لكن عملها في النفس ينبغي ألا ينتهي. إنها لا تقدم حكايةً نغلقها، بل تمنحنا أسئلةً ترافقنا:

هل أرى الناس بقلبي أم بمناصبهم؟ هل أحمل القرآن عزيزاً من غير كبر؟ هل أعرف فقري إلى الله وسط نعمه؟ هل أنظر إلى طعامي أم ألتهمه في غفلة؟ هل أصلح علاقتي قبل يوم الفرار؟ وأي وجه أبنيه للقاء الله؟

هذه ليست أسئلةً تجاب مرةً واحدة، بل موازين تعود كلما تغيرت الظروف. فقد ينجح الإنسان في التواضع وهو فقير، ثم يُبتلى بالمكانة فيحتاج أن يقرأ السورة من جديد؛ وقد يرحم الضعيف ما دام بعيداً عنه، ثم يضيق به حين يطرق بابه؛ وقد يحمّد النعمة في القلة، ثم ينساها حين تتكاثر.

القرآن تذكرة لأن الإنسان كائنٌ ينسى، ولأن الإيمان ليس حالةً نصل إليها ثم نستقر، بل عودةً متكررةً إلى القبلة كلما جذبتنا الطرق الجانبية. ومن رحمة الله أنه لم يكن لنا إلى ذاكرة قلوبنا، بل أنزل كلاماً كلما عدنا إليه أعادنا إلى أنفسنا.

الوجه الذي نرجو

لسنا نملك أن نضمن لأنفسنا وجهاً مسفراً؛ فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقبلها كيف يشاء، والأعمال بالخواتيم، والنجاة برحمته. لكننا نملك أن نسأله، وأن نسعى، وأن نخشى، وأن نعود كلما زللنا.

نرجو وجهاً غسلته التوبة قبل أن تغسله الدموع، وأضاءه الصدق قبل أن تضيئه البشري، وتعلم في الدنيا ألا يعبس استعلاءً حتى يضحك في الآخرة امتناناً. نرجو أن نكون ممن حملوا التذكرة في قلوبهم، فرأوا بها الإنسان والنعمة والمصير.

اللهم لا تجعل في قلوبنا استغناءً يصدنا عن ذكرك، ولا كبراً يحجب عنا أولياءك المغمورين، ولا علماً يزيدنا إعجاباً بأنفسنا، ولا نعمةً تنسينا المنعم. علماً أن نرى بقلوبنا حين نخدعنا الظواهر، وأن نقصد وجهك حين تتنازعنا وجوه الناس.

اللهم اجعلنا ممن إذا جاءهم الساعي لم يتلهوا، وإذا جاءتهم التذكرة لم يعرضوا، وإذا أطعموا شكروا، وإذا أذنوا استغفروا، وإذا تذكروا الصاخة أصلحوا ما بينهم وبينك وما بينهم وبين عبادك.

اللهم هون علينا يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، ولا تجعل لأحدٍ عندنا مظلمةً يطالبنا بها بين يديك. اجمعنا بأهلنا في طاعتك في الدنيا، ثم اجمعنا بهم برحمتك في دارٍ لا فرار فيها ولا فراق.

اللهم إنَّ وجوهنا لا تشرق بأعمالنا إلا أن تفيض عليها من رحمتك، وإنَّ صحائفنا لا تطهر إلا أن تغسلها بمغفرتك؛ فاستر تقصيرنا، واقبل توبتنا، وأصلح سرائرنا، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

واجعلنا يوم تأتي الصاخّة، وتنقطع الأسباب، وينشغل كل امرئٍ بشأنه، من أهل قولك
الكریم:

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾.

والحمد لله الذي أنزل التذكرة، وكرم الإنسان بالهداية، وفتح للتائبين أبواب الرجوع، وصلى
الله وسلم على نبينا محمد الذي بلغ الوحي كاملاً، وتلقّى تربية ربه بأكل العبودية، وعلى آله
وصحبه أجمعين.